الفصل الثانى

أولاً: موقف عزام من الدين الاسلامى، وماذا يطلب من المسلمين؟

سيطرت فكرة الدين، والعقيدة الإسلامية على عزّام منذ أن كان صبيًا يخطو خطواته الأولى فى مدارج الحياة، فيتعلم من والده، وفى كُتّاب القرية، ثم فى مدرسة القضاء الشرعى.

لذا لم يكن أمرًا أن نرى لحمة نسيج أعماله وسداها فى هذا المجال سواء فى مؤلفاته أو ترجماته أو مقالاته. وقد أثبت حصرًا لجل تلك الأعمال فى الفصل الأول من هذ الكتاب.

وأتناول فى هذا الفصل جانبًا من مقالاته التى كتبها عن هذا الموضوع فى المجلات المختلفة، لاسيما، مجلة الثقافة والرسالة.

ذكر عزّام فى مجلة الرسالة:[1]

"دعوة الإسلام فى أصولها. وكما حدّدها القرآن الكريم والسنة النبوية، ترجع إلى أمرين:

الأمر الأول: توحيد الله، وتوحيد النفس بتخليصها من الأوهام المتنازعة والخرافات المتهافتة وإقامتها على طريق بيّنة لا حيرة فيها ولا ضلال، ثم توحيد الأفراد فى الجماعة بالعدل الشامل والتسوية التامة، وإعطاء كل ذى حق حقه، لا عبد ولا حر، ثم توحيد الجماعات فى لا شرقى ولا غربى، ولا عربى ولا أعجمى.

قال تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

---

(١) الرسالة ١٥ إبريل ١٩٣٧.

(٢) الحجرات/ ١٣.

الأمر الثانى: العمل الصالح، أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، إلى العمل لإقامة الحق وهدم الباطل، وتسمو النفوس عن الصغائر والدنايا وتطهر من الأحقاد والضغائن".

من تلك المقالات، ما كتبه تحت عنوان: "فى مجلس رسول الله"، وما كتبه من مقالات عن المشاعر المقدسة، وتضمنها كتاب الرحلة: مثل، حول الكعبة، الرسالة عدد ٢٤٧ فى ٢٨ مارس ١٩٣٨، عن "منى" الرسالة عدد ٢٥٢ فى ٢ مايو ١٩٣٨.

وكذلك حديثه عن الحج فى العددين ٢٨٢ فى ٢٦ ديسمبر ١٩٣٨، ٢٨٨ فى التاسع من يناير ١٩٣٩، وسلسلة أحاديثه فى نفس تلك المجلة، والتى حملت عنوان: "أخلاق القرآن"[١] خصص المقالة الأولى لـ: الحديث عن العدل، وتناول فى الثانية: صفة الوفاء، وفى الثالثة: الإحسان، وفى الرابعة: الصدق، وتحدث فى الخامسة: عن الصبر.

وتحدث فى السادسة: عن "العفو"، واختتم تلك المقالات بالحديث عن "صلة الأرحام"، وحديثه عن القرآن الكريم، تحت عنوان: "من معجزات القرآن"، تفسير الآيات الأولى من سورة الروم.

ولأن الإسلام[٢]؛ ما استقر فى القلب وصدّقه العمل، وبذلك يكتمل الإسلام والإيمان يكون المسلم مسلمًا حقّا، كما أراد له الخالق أن يكون، ولا يكون هناك فارق بين العبادات والمعاملات، ذلك الفارق الذى أدى إلى تدهور حال الأمة الإسلامية. فتنازعته المدنية الغربية والمذاهب الهدامة، وغشيته الحيرة، وانبهمت عليه السبل، فلم يدر أى سبيل يسلك، أو أى أمر يدع. أرى عزّام يهتم

---

(١) الرسالة ابتداء من العدد ٣٧٧ من سبتمبر ١٩٤٠، والعدد ٣٧٨ فى ٣٠سبتمبر ١٩٤٠، ٣٨٤ فى ١١ نوفمبر ١٩٤٠، ٣٨٩ فى ٢٥نوفمبر ١٩٤٠، ٣٨٨ ـ ٩ ديسمبر ١٩٤٠، ٣٩٥ فى ٢٧ يناير ١٩٤١، وأخيرًا العدد ٣٩٧فى العاشر من فبراير ١٩٤١.

(٢) الرسالة، العددان، ٧٢٢ ـ ٧٢٣، مايو ٥ ـ ١٢ ـ ١٩٤٧م.

بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا، ويكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان: أمم حائرة ، ابتداء من العدد ٨٢٥ من الرسالة فى٢٥ من إبريل ١٩٤٩ ، وبلغت أربع عشرة مقالة، انتهت فى العدد ٨٤٦ فى الثامن من أغسطس ١٩٤٩ ، واشتملت على العناوين الفرعية التخصصية التالية: فوضى الأداء والأعمال، طغيان المادة، المدنية الأوروبية ، الهداية والرقابة، المدارس ودور العلم، الأسرة، المرأة فى هذا العصر، فى مقالين متعاقبين، المرأة والانتخاب، سبيل الهدى، الإيمان بالله، العدل. فى مقالين متتاليين أيضًا، ثم الخاتمة لتلك السلسلة من المقالات. أما مقالاته فى هذا الجانب الديني فبدأها فى مجلة الثقافة فى مقال بعنوان: فى مجلس رسول الله ثم إلى الرسول الكريم فى عيد مولده[١] (عدد رقم ١٨ فى الثانى من مايو ١٩٣٩)، وفى ذكرى الهجرة [٢] (عدد١٠٩ فى ٢٨ يناير ١٩٣٩)، وأربع صفحات متتابعات من سيرة رسول الله عدد ٢١١ فى ١٢ يناير ١٩٤٣.

وتحدث عن التصوف الإسلامى، وكان قد بدأ سلمه الجامعى والأكاديمى بدراسة عن التصوف وفريد الدين العطار، ثم اهتمامه الكبير بجلال الدين الرومى، ومحمد إقبال، وكيف نادى بأن يكون التصوف تصوفًا إيجابيًا، بعيدًا عن الخرافات التى تسىء إلى التصوف وتسىء إلى فكرة الدين والتدين.

وليسمح لى القارئ الكريم أن أستعرض جانبًا مما كتبه عزّام، فى مقالاته تلك تصديقًا لما قاله عزّام على قبر الزهاوى مرثيًا له: "إنما الخالد من خلدته آثاره". فقصدى من هذا الكتاب، أن تكون كتاباته ميسرة للقراء، فتبقى مدوية بعد مماته، كما كانت مدوية فى حياته.

كتب عزّام تحت عنوان: "فى مجلس رسول الله"[٣]..

"دعوى الإسلام تخترق الآفاق، ونور الإسلام يمزّق الظلمات، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ماضٍ فى جهاده، ودائب على إرشاده، يرى تباشير الصبح

---

(١) عدد رقم ١٠٨، الثانى من مايو ١٩٣٩م.

(٢) عدد رقم ١٠٩، ٢٨ يناير ١٩٣٩.

(٣) الثقافة، ٢١ فبراير ١٩٣٩.

فى أعقاب الليل، ويبصر بسمة الحق لهزيمة الباطل، ويتلقى وفود الإسلام، بعد اثنين وعشرين عامًا لقى فيها هو وصحبه ما لقوا من جبروت الشرك وكبرياء القوة، وعنت الظلم ولجاجة الباطل، وهجوم الأهوال، وإحاطة المهالك.

وبنو سعد بن بكر فى ديارهم شرقى الحجاز إلى الجنوب، سمعوا الدعوة الإسلامية وأحاطت بها آياتها، وتريثوا حتى لم يبق للريث موضع، فأجمعوا أن يتعرفوا كنه الأمر، ويفصلوا هذه القضية.

ويسترسل عزّام فى وصف طريق رئيسهم ضمام بن ثعلبه وهو يشد رحاله إلى المدينة سائلاً عن محمد (ص) ويدخل المسجد راكبًا، وينيخ جَمَله فى فنائه ويتقدم سائلاً:

ضمام: آيكم محمد؟

الصحابة: "هذا الرجل الأبيض المتكئ".

ضمام: "ابنَ عبد المطلب"!

رسول الله: "قد أجبتك".

إنى سائلك فمشدّد عليك فى المسألة فلا تجِدّ علىّ فى نفسك.

سل عما بدا لك...

ـ أسألك بربك ورب من قبلك: آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

ـ اللهم نعم.

ـ أنشدك بالله: آلله أمرك أن تصلى صلواتك الخمس فى اليوم والليلة؟

ـ اللهم نعم.

ـ أنشدك بالله: آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟

ـ اللهم نعم.

ـ أنشدك بالله: آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟

ـ اللهم نعم.

ـ آمنت بما جئت به. وأنا رسول من ورائى من قومى. وأنا ضِمام بن ثعلبه أخو بنى سعد بن بكر[1].

ويعلق عزّام:

لم يطلب ضمام بن ثعلبه معجزة ولا آية ولا برهانًا: ولكنه رأى المعجزة والآية والبرهان فى ذمة محمد وصدقه.

فتقدم جريئًا حرّا يسأل الرجل الحر الذى وثق به ويناشده الله... فما أجابه آمن به غير متردد ولا مرتاب ولا متريث.

سأل الرجل العظيم وناشده بربه فأجابه، وهو أكبر فى نفسه وأعظم فى رأيه من أن يكذبه أو يخدعه.

هـل وراء هـذا للحـر برهـــان أن فى هذا الحوار لعبرة للأحرار

وكتب تحت عنوان: **"إلى رسول فى عيد مولده"** [2] **منذ ولدت آمنة بنت وهب محمد بن عبد الله.**

"لم تضرب البشائر لمولده، ولا سارت الأنباء، ولا تطايرت التهانى، ولا اجتمعت المحافل؛ ولكن الله سبحانه كان يعلم ماذا أخرج من غيبه وماذا وضع على أرضه. كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذى أعدّه ليُعلى التوحيد ويضع الوثنية، ويعز الحق ويذل الباطل، وينصر الخير ويخذل الشر، ويمحو العبودية ويثبت الحرية، ويزلزل الجبارين، ويثبت الضعفاء والمساكين، ويبطل

---

(١) يذكر عزّام أن الحوار منقول من البخارى بنصه. المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) الثقافة، ٢ مايو ١٩٣٩ ص ٢٤ وما بعدها، كما تحدث فى الرسالة بعد ذلك ٢١ إبريل ١٩٤١ حيث شدد على المسلمين لبعدهم عن التأسى برسول الله وختم مقالة بقوله: المسلمون أحق باللوم وأجدر بالتعنيف فهم أهل الدين، وأن الذكرى العظيمة فى تاريخ الأمم نجوم يهتدى بها فى ظلمات الأيام، كما تحدث عن الرسول مرة أخرى فى الرسالة ٩ فبراير ١٩٤٢ تحت عنوان "رسول الله فى عرفات".

التميز بين الناس، ويشيع المساواة بينهم، ويحقر الأحساب والأنساب، ويعظم العمل الصالح، ويحطم العصبيات ويدعو إلى الأخوة العامة".

"كان الله وحده يعلم أن قد وُلد الرجل الذى يخرج الحق من الصوامع والمعابد إلى معارك الحياة، ويقيم البر ألسنة الملوك وأيديهم، بعد أن كان نفلة الفقراء والمساكين، ويقيم الملوك فى صفوف الصلاة بعد أن كانوا فى صفوف الآلهة، ويجعل الحياة جهادًا دائبًا للحق والخير، ولا يضعف ولا يفتر، ويُرى الناس كيف يجتمع الحق والقوة ويلتئم الملك والنبوة".

ثم ينتقل إلى تساؤل عما آل إليه حال المسلمين، بعد أن تبين فضل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام، وما أرسل إليه لنقل البشرية من الضلالة إلى الهدى.

فيقول:

يا رسول الله! أين نحن اليوم من شريعتك؟ وأين مقامنا من دعوتك؟ وأين سيرتنا من سنتك؟

علمت المسلم أن يكون خليفة الله فى أرضه، يقوم بالعدل بين خلقه، ويقسم الرزق بين عباده، ويهيمن على قانون الله بين الناس أجمعين، يقودهم إلى الحق طوعًا أو كرهًا، ويسيرهم للخير اختيارًا أو اضطرارًا.

فأين هم اليوم من هذه الخلافة؟ وأين عقله من هذه السياسة؟ وأين نفسه من هذا السمو؟ وأين قلبه من هذا الطموح؟ وأين عزمه من هذه المهمة؟ وأين يده من هذا السلطان؟

علّمت المسلم أن يقوم بالقسط لله، ويجعل العدل بينه وبين الناس، لا يبغى، ولا يحتمل البغى، ولا يظلم، ولا يبخس الناس أشياءهم، ولا يبخس حق نفسه، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يعطى ما ليس لغيره. وتلوت عليهم قول الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[1]. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾﴾[2].

لو أن هذه الأمم فقهت آياتك وعملت بها، فقام كل زعيم بقسط الله فى أرض الله بين عباد الله، يستوى فى نصفته القريب والأجنبى، والقاصى والدانى، ويسكن إلى صدقه ونصحه الناس كافة، لا يغش ولا يخدع ولا يختل ولا يزور، ولا يعتدى ولا يظلم ـ لو أن كل زعيم أخذ بالعدل كل فرد من أمته، وآخذ بالعدل نفسه. وجمع الأمة كلها على العدل، لعاشت الأمم مجاهدة فى الحياة على شريعة من التناصف جامعة، وخُطة من العدل مؤلَّفة، ولتعاونوا على البر بالإنسان وإسعاد الإنسان، لا على التدمير والتخريب والقتل والأسر، والغضب والنهب، والاحتكام إلى المهالك، والالتجاء إلى القوة.. وويل للمغلوب!

يا رسول الله! علمت المسلم أن يكون حرّاً لا يخيفه جبروت، ولا يأسره مطمع، ولا تملكه الأهواء، ولا تعبده الشهوات، يسير فى الأرض قانونًا لا يُقهر، وسنة لا تتغير، يستمتع بما يمتعه به الحق. ثم الفتن والشهوات من بعد أهون من أن تغريه، وأحقر من أن تفتنه..

فما بال المسلمين اليوم تتنازعهم الأهواء فيتذبذبون، وتتجاذبهم الشهوات فيتهافتون؟ فما بال هؤلاء المتكالبين تملكهما الأموال فهم عبيدها، وتفتنهم المناصب فهم صرعاها؟ قد ملك نفوسهم من الحرص والطمع، والنهم والجشع، ما لاتملؤه السموات والأرض؟ فذلوا من حيث أرادوا العزّ، وافتقروا من حيث حاولوا الغنى، وشقوا من حيث توهموا السعادة!

يا رسول الله! علمت المسلم أن يكون عزيزًا لا يذل، وأبيًّا لا يخنع، وموحدًا لا يشرك، يعبد الله وحده لا شريك له، والناس من بعد سواسيه ليس بعضهم أرباب بعض.

---

(١) المائدة/ ٨.

(٢) النساء/ ١٣٥.

فما بال هؤلاء الأذلاء الخانعين الذين يؤلهون كل قوى، ويخضعون لكل جبار..

فما بال المسلم يقعد ويحسب أنه يعبد، ويكلّ ويظن أنه متوكلّ ويأس ويتوهم أن يقنع؟ حرفوا كلماتك وجهلوا آياتك!

يا رسول الله!

علمت المسلم أن يكون على الخطوب جسورًا، وفى النوائب صبورًا. كأنه فى معترك الحياة قدر لا يرتد، وقانون طبيعى لا يتخلف..

فما بال المسلم اليوم جزوعًا يائسًا، وخائرًا مبلسًا!

يا رسول الله!

وقفت فى حَضرتك ساعة فلا معنى من العلاء والعظمة والحرية والحق والخير والبر والفضيلة إلا نزل على قلبى، ولاشية من الإسفاف والباطل والشرّ والرذيلة إلا طارت عن نفسى!

وستبقى سيرتك نبراسًا يعشو إليه الخابط فى الظلمات، وهديك منارًا يهتدى به الضال فى الفلوات، وشرعك علمًا ينحاز إليه الأخيار، ودعوتك آذانًا يصغى إليها الأبرار ورسالتك رحمة للعالمين.

إن انحرف الناس فما أعوجت سنتك، وإن ضلوا فما طمست شريعتك، وإن حاروا فما خفيت سيرتك.. ويردهم إلى الطريق هديك، وتهديهم إلى الغاية سيرتك، وترشدهم على الأجيال دعوتك..

ولن يزال مولدك هدى للناس وذكرى، وموعظة وعبرة، ودعوة لا تحول، ونورًا لا يزول.

يا رسول الله! صلى الله عليك..

وتحدث عزّام عن المسلمين وموقفهم من العصر فى مقال له تحت عنوان[1]: "**ذكرى الهجرة**"، فبعد أن بيّن أن الناس ليسوا سواء فى سيل الزمان، وتيار

---

(١) الثقافة، ٢٨ يناير ١٩٤١، ص ١٤٣، مقال رقم ٣٥.

الحدثان: منهم الضعاف المظلومون، والعبيد الخانعون الذين تصّرفهم الحادثات كما شاءت. ومن الناس الأباة الأحرار، أولوا الألباب والعزائم الذين تثبتهم عقولهم وقلوبهم وهممهم. فيقومون المقام الذى يرضون وينهجون النهج الذى يريدون.

يتساءل:

و المسلمون ما مقامهم اليوم فى حكم الزمان؟ وما شأنهم فى مجرى الخطوب؟ إنهم فى ذلك فرق شتى: فريق راعته الحادثات، وبهرته النائبات ودهمه التيار الصاخب فجرى معه راضيًا به أو مقهورًا عليه، أو يائسًا من مغالبته، أو استهوته الفتن وسحرته الزخارف ومال به الهوى، فأعطى العصر قلبه وعقله.

ومن المسلمين فريق هالهم العصر الجديد، وأخافتهم فتنة، فأرادوا أن ينجو بأنفسهم ودينهم بأن يجتنبوا هذا التيار، وينتبذوا من هذه الحادثات مكانًا قصيًا.

وأولئك لم يجاهدوا، فلم ينتصروا ولم يهزموا.

وإن مدّ البحر مده لحقهم، وإن سال السيل بهم مرة جرفهم، بأنهم لم يعّدوا للحياة عدتها، ولم يتخذوا للحوادث سلاحها، والأعزل فى هذا المعترك مغلوب، والغافل فى هذا الخضم غريق.

وفريق آخر من المسلمين لم تجرفهم الحادثات ولا فروّا منها، ولم تفتنهم الفتن، ولا بعدوا عنها؛ بل هم فى مجرى الخطوب ثابتون عدتهم عقول درّاكة لا يشتبه عليهم الحق والباطل..

لا يخشون قوة، ولا يعرفون زمانًا قاهرًا، ولا عصرًا غالبًا؛ قد سموا بأنفسهم فوق الجديد والقديم، والماضى والحاضر، والشرقى والغربى يأخذون ويتركون مختارين، ويأمرون وينهون على هدى وبصيرة لا استسلامًا للفتنة، وخنوعًا للزمان، ولا عصبية للقديم وغمطًا للجديد[1].

---

(١) الثقافة، ٢٨ يناير ١٩٤١.

"إن الهجرة لمبدأ تاريخ عرفت فيه الإنسانية من معانى الخير والحق والحرية ما لم تعرف فى هذا التاريخ.

فيا أيها المسلمون لا يهولنكم ما يحيط بكم، واتخذوا من الهجرة عيدًا يلد فى كل نفس معانى من العزة والحرية، تثبت بها فى هذا الجهاد، ومعانى من الحق والصدق تعيش بها على هذه الأرض، ومعانى من الخير والبر تُسعد بها الناس. إلا أنكم أولى بالحق والخير، والمجد والكرامة وأجدر بحمل أمانة الإسلام وتبليغ رسالة محمد؛ فافعلوا فلستم أهلاً للانتساب إلى الإسلام دين الحق ومحمد نبى الإنسانية".

واسترسل عزّام قائلاً: وكيف أن الأمم تعمد إلى حدث جليل من أحداثها يبرز بين خطوبها فتجعله ميقاتًا تبتدى به حساب الأيام.

وإن خير ما أرّخت به أمة حادث يلد لها تاريخًا، أو يغير لها وجهة أو يهديها إلى غاية، ويبقى على مر الأيام خلاّقًا للعظائم، مدّادًا بالفضائل، فياضًا بالعظات؛ تنظر إليه الأمة كلما بعد بها المسير لتنظر أين هى فى المكانة التى تراد لها، وأين سيرها من الطريق البيّن، وأين وجهتها من الغاية المرجوة.

ويقول[1]: لقد كان إلهامًا ما رآه ثانى الخلفاء الراشدين عمر الملهَم المحدّث، حين أشار على المسلمين أن يجعلوا الهجرة مبدأ لتاريخهم وميقاتًا لأعمالهم، فما أعرف حدثًا ولد تاريخًا طويلاً، وخلق عصرًا مديدًا، وأطرد فى تاريخ البشر فياضًا بالخير، مترعًا بالحوادث كالهجرة؛ وما هى إلا سفرة محسوسة قصيرة جعلها الله عنوان أسفار معنوية طويلة فى نفوس الأفراد والجماعات والأمم؛ وما هى إلا نقلة بين بلدين كانت انتقالاً من الوثنية إلى التوحيد، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الجاهلية إلى الإسلام.

---

(١) الثقافة، ٢٠يناير ١٩٤٢، مقالة ٩، ص ٨٣.

بالهجرة عز الإسلام، وانتصرت دعوته، ونفذت شريعته، وتألفت الجماعة الإسلامية الأولى ـ الجماعة التى انتشرت فإذا هى أمة تجمع المشرق والمغرب وجاهدت فإذا هى ملء الزمان عزمًا وحزمًا. وسيطرت فإذا دولة تقوم على الأسود والأبيض تشريعًا من الحق الشامل والأخوة الجامعة، ثم استقرت فإذا الحضارة المؤمنة الرفيقة التى تحطم الحدود الفاصلة، وتمحق العصبيات الباطلة، وتسوى بين الناس أخوة عاملين. كلهم لآدم.. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح..

كم فى تاريخنا من أعمال تمت إلى الهجرة بسبب، وكم فيه من أبطال يربطها بالهجرة نسب.

محمد بن القاسم الثقفى، ثم محمود الغزنوى، وظهير الدين بابر. كانوا فى فتح الهند وإقامة الدولة فيه من آثار الهجرة، وقتيبة وأسلافه وخلفاؤه فى تركستان سهام رمت بها الهجرة فأبعدت المكان والزمان، وعقبة بن نافع على فرسه على شاطئ بحر الظلمات، وطارق بن زياد فى الأندلس، وعبد الرحمن الغافقى فى بلاط الشهداء كانوا يطوون الأرض والممالك، وينشرون العدل والأخوة مهاجرين على آثار الهجرة النبوية.

لقد أضاع المسلمون الزمام، ورضوا أن يكون غيرهم الإمام، وفقد كثير من المسلمين عقولهم فى هذه الفتن المحيرة وأضلوا رشدهم فى هذه الخطوب المظلمة ولكن لا يزال وحى الإسلام يسمع من وراء الحجب، ولا تزال هذه العقول تعرف غايتها. إن التاريخ الذى ولدته الهجرة لم يمت. إن علينا أن نتذكر فنحسن التذكر من كان يظن أن الأقلام جفت، والصحف طويت.. فليصغ ليسمع صرير الأقلام، تخط فى صفحات التاريخ الإسلامى فصولاً جديدة، ومن كان يحسب أن الينبوع نضب، فليمعن النظر ليرى أن الينبوع فياض، وأن حجبته الأدغال أو تراكمت حوله الرمال، ومن أحسّ همود الحياة فى نفسه، وخمود الهمة فى صدره وضعف الأمل فى قلبه، ومرض البيان فى لسانه فليرجع إلى الهجرة

وآثارها والإسلام وتاريخه.. فإن الإسلام لا يعرف الموت ولا الصعق ولا الذلة ولا اليأس؛ وإنما هو العيش فى عزة وكفاح، وإن الجنة تحت ظلال الرماح، وإن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

ثم تابع الحديث فى هذا المجال فى مقالة أخرى تحت عنوان: "أربع صفحات متتابعات من سيرة الرسول"[1].

الصفحة الأولى: عن يوم العشرين من رمضان سنة سبع من الهجرة حين دهم جيش التوحيد مكة من أعلاها وأسفلها حيث خالد بن الوليد قائد الميمنة من أسفل مكة والزبير بن العوام قائد المسيرة يدخل من كدى أعلى مكة وأبو عبيد بن الجراح فى صف من المسلمين يدخل من أذافر بين يدى رسول الله.

والصفحة الثانية: يتحدث عن قبائل هوازن وثقيف ترتاع لفتح مكة التى **أمضت بقضها وقضيضها** وزلزل المسلمون زلزالاً شديدًا، ولكن القطب لم يزل من مكانه. ثبت رسول الله ونادى العباس أصحاب بيعة الرضوان فانثالوا إليه بين الجموع كما ينساب الماء القليل بين الصخور والرصف. وأخرج من هذه الهزيمة نصرًا مؤزرًا.. لم يَرُع رسول الله هذا الفزع ولكن ثبت ثبات الإيمان ورسخ رسوخ الحق، وكان فى المأزق الشديد يوم حنين كما كان فى الموكب العظيم يوم الفتح، واثقًا بالله متوكلاً عليه.

وفى الصفحة الثالثة: اجتمع المسلمون بالجعرانه ماء بين الطائف ومكة ومعهم من سبى هوازن وإبلها ونسائها ألوف كثيرة.. وجاء وفد هوازن يسأل الرسول الكريم، أن يردّ عليهم أولادهم ونساءهم. وقال رجل من بنى سعد قوم حليمة مرضعة الرسول: "يا رسول الله إنما فى الخطائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللائى كنّ يَكْفُلْنَك".

---

(١) الثقافة، عدد ٢١١، فى١٣ نوفمبر ١٩٤٥.

ولو شاء الرسول لجزى هوازن بما صنعوا؛ وأنهم لأهل للجزاء، ولكنه لقي جهلهم بحلمه وجرمهم بصفحه كما فعل بأهل مكة، فقال: أما ما كان لى لبنى عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس.. فقالوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله أبناءنا ونساءنا.

إلى أن رجعت هوازن بأبنائها ونسائها. ثم كانت الصفحة الرابعة حين قسم الرسول الغنائم على أصحابها، وزاد فأجزل العطية لجماعة من رؤساء العرب قرشيين ليتألف قلوبهم، ولم يعط أحدًا من الأنصار فعجب الأنصار وتكلموا فيما بينهم. وجاء سعد بن عبادة سيد الخزرج .. فقال: يا رسول الله! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفيىء الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء..

فأين أنت عن ذلك يا سعد؟

ـ يا رسول الله ما أنا إلا من قومى...

ـ فاجمع لى قومك فى الحظيرة.

اجتمع الأنصار فى الحظيرة وهم عماد هذا الإسلام وجنده، اجتمعوا عاتبين على قائدهم العظيم، يرون أنه آثر عليهم جماعة من رؤساء العرب ليس لهم فى الإسلام سابقة ولا فى نصرته بلاء.

فليت شعرى.. ماذا يقول هذا القائد الكريم، وكيف يرضى خلّص جند العاتبين.

استمع:

ـ يا معشر الأنصار! مقالة بلغتنى عنكم، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم؟

ألم آتكم ضالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟:

ـ بلى ! لله ولرسوله المن والفضل.

ـ ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟

ـ وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

أما والله لو شئتم لقلتم ثم لصدقتم:

"أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك"... أفلا ترضون، يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذى نفى بيده لولا الهجرة لكنت إمْرَأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت مسلك شعب الأنصار، اللهم إرحم الإنصار، وأبناء الأنصار. قال الأنصار رضينا برسول الله قسمًا وحظًا".

وتحدث فى مجلة الرسالة عن **أخلاق القرآن** ذكر فيها أن من يتدبر القرآن يعرف أن القصد الآخر الذى ترمى إليه تربية القرآن هو أن يحرر الإنسان من أهوائه وشهواته، وأن تطوى نفسه بالأخلاق القوية القويمة، وأن يزود عقله بالمعرفة، ثم أن يعمل بهذه النفس المحررة القوية، وهذا العقل القويم فى معترك الحياة مبتغيًا الخير لنفسه وللناس كافة. ذلكم مقصد القرآن فيما يعلم من الأخلاق.

يريد القرآن نفسًا محررة من الأهواء والشهوات: وليس معنى التحرر من الشهوات الحرمان منها، فإن القرآن يريد للناس أن يستمتعوا بهذه الحياة يَزْورّوا عنها. ولا يتجنبوها: **﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[1].

---

(١) الأعراف/٣١، ٣٢.

القرآن لا يدعو إلى الرهبانية ولا يرضاها، وإنما يدعو الإنسان إلى أن يرمى بنفسه فى معارك الحياة مزودًا بالأخلاق القويمة الفاضلة مريدًا الخير لنفسه وللناس. فمن اعتزل معارك الحياة فقد فر من الواجب، وجنح إلى الراحة، وآثر البطالة. العبادة الحق فى شرعة الإسلام هى الجهاد فى هذه الحياة، كل عمران فى الأرض، وكل إحسان إلى النفس أو الأقرباء أو الأصدقاء أو عامة الناس أو فى الحيوان الأعجم، كل هذا عبادة يأمر بها الإسلام بل يعدها أفضل العبادات.

إنما يريد القرآن من التحرر من الشهوات أن يسيطر الإنسان على نزعاته فيلائم بينها وبين الحق والخير ويفعل أو يكف حرًا بعقله لا عبدًا بهواه..

مقصد الإسلام الأخير هو تحرير النفس من الأهواء والشهوات وتقويتها بالأخلاق الفاضلة، وتحرير العقل من الأهواء كذلك وتقويته بالمعرفة ثم بالعمل بنفس محررة قوية، وعقل حر واسع فى أرجاء هذه الأرض لخير الناس".

كما ينهى القرآن عن الهوى ويعده معطلاً لمعارف الإنسان وعقله وسمعه وبصره ويراه رأس كل ضلالة.. أما العمل فهو المقصد الذى يقصد إليه القرآن من تعليم الأخلاق الفاضلة ولم يقبل القرآن عذر الأذلاء الذين يعتذرون بالعجز عن العمل أو بتغلب الأقوياء عليهم وصدهم إياه عن الخير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[1] فهو يدعو إلى الهجرة حيث يستطيع الإنسان العمل..

ذلكم إجمال الكلام فيما يقصد إليه القرآن من تهذيب للنفس وإصلاح الخلق والجهاد فى الأرض.

---

(١) النساء/ ٩٧.

وهو الذى بينته أفعال الرسول وأصحابه ومن يتبعهم بإحسان، فقد خلق القرآن الجماعة الفاضلة، وخلقت الجماعة الدولة، وأيدت الدولة الحق والعدل وسيطرت على الأمم تسوسها بعدل الله طوعًا أو كرهًا. كما كتب سلسلة من المقالات عن أخلاق القرآن. وخص المقالة الثانية بالحديث عن "**العدل**" حيث بيّن القرآن أن الله جعل العدل نظامًا للعالم وقياسًا للخلق، وأن يزهو العدل عن الهوى فلا يميلهم عنه حب ولا كره.

كما يُشدّد القرآن فى النهى عن الظلم، والظلم فى القرآن؛ وضع الأمر فى غير موضعه أو الخروج عن الحق. فالمجرم ظالم، والكافر ظالم، والمشرك ظالم، والكاذب ظالم وعاقبة الظلم هلاك ودمار للفرد والجماعة والأمة.

والعدل المطلق الذى بيّنهُ وأمر به يقتضى الجزاء الحتم.. فكل إنسان مجزىّ بعلمه إن خيرًا فخيرًا أو شرًا فشر، والعدل يقضى أن يميّز الخير من الشر والمحسن من المسيئ.. بقول القرآن: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] ويقول: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

بل ويقرن القرآن الجزاء بخلق السموات والأرض: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]. ويبيّن أن داء الأمم الظلم ودواؤها العدل الشامل المطلق الذى لا يختلف باختلاف الأزمان والأوطان والشعوب والأديان[4].

ثم تحدث فى مقالة تالية فى هذا المجال، أى عن أخلاق القرآن وخَصّها للحديث عن **الوفاء بالعهد**[5].

---

(١) فصلت/ ٣٤.
(٢) القلم/ ٣٥، ٣٦.
(٣) الجاثية/ ٢٢.
(٤) الرسالة، ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠، ص ١٤٧٥.
(٥) الرسالة، ٣٠ سبتمبر ١٩٤٠، ص ١٥٠٧

فتبين أن من "يتدبر آيات القرآن يجد العهد فيها ضربين: العهد العام والعهد الخاص؛ أما العهد العام فهو أداء الواجب الذى يقضيه عمل الإنسان، فمن تولى عملاً فقد عاهد أن يفى به على الوجه الأكمل، فإذا لم يفعل فقد خالف العهد، ومن آمن بدين فقد عاهد أن يأتمر بأوامره، وينتهى بنواهيه فإن لم يفعل فقد نقض العهد.

وقد حث القرآن على الوفاء بالعهد كله وبالغ فى الأمر به. يقول: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾** ﴾[1]. ﴿ **وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾** ﴾[2]. وقد أخرج القرآن ناقضى العهود من الإنسانية وجعلهم من الدواب بل جعلهم شر الدواب.

والقسم الثانى من العهد: معاهدة رجلين أو فريقين على أن يسأل بعضهم بعضًا، وأن يجتنبوا الضر فيما بينهم أو تحالف فريقين على أن يتعاونوا على عمل. وهذه العهود شائعة بين الناس منذ اجتمعوا واحتاج بعضهم إلى بعض وخشى بعضهم بعضًا.

ثم تكلم عن "**الإحسان**"[3] فى مقالة أخرى من مقالات أخلاق القرآن، وبيّن أن الإحسان الإتيان بالحسن من القول أو الفعل، والإحسان خلق يؤدى بصاحبه إلى الحسن من كل شىء وينفر به عن القبيح من كل شىء، ويطمع به إلى الأحسن. أمّا جزاء الإحسان فقد قال القرآن: ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[4]، وقال: ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[5]..

---

(١) الأنعام/ ١٥٢.
(٢) الإسراء/ ٣٤.
(٣) الرسالة، ١١ نوفمبر ١٩٤٠، ص١٩٧٥.
(٤) الرحمن/ ٦٠.
(٥) يونس/ ٢٦.

ثم تحدث فى مقالة عن "**الصدق**"[1]، وهو الإبانة عن الحق والإخبار بالواقع. وبه يستقيم التفاهم بين الناس، ويكون التناصح والتعاون، وتسجل الحقائق والوقائع.

يقول القرآن: ﴿**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾[2].

مدخل الصدق ومخرج الصدق أن يدخل الله الإنسان فى كل الأمور إدخالاً صادقًا ملابسًا للحق والخير. وأن يخرجه من الأمور كلها كذلك إخراجًا مقارنًا للحق والخير، فيجعل تصرفه فى الأمور كلها كما يجب عليه ويرجى منه، فى غير رياء ولا تزوير. وكثيرًا ما يقرن القرآن الكريم الصبر بالصدق وهما من منبع واحد.

وجعل عزّام **الصبر** عنوان مقالة أخرى[3] وحدد الصبر بقوله: إنه "خلق يعصم النفس من اليأس إذا طال الطريق إلى غاياتها، ويمنعها من الارتداد إذا سترت العقبات سبيلها ويكبر بها عن الجذع إذا نزلت بها من أحداث الزمان نازلة".

والصبر فى القرآن قرين الحق لأن الحق لا ينصر إلا بالصبر، والصبر قرين العمل الصالح إلا صبر النفس عما يزين[4] لها من الشهوات. وجعل القرآن الكريم الصبر وسيلة إلى الإمامة والهداية، فمن لم يصبر لم يقوّم نفسه. ولم يستطع الدعوة إلى الحق والمسير إليه والجهاد فى سبيله.

وقد أعلى الله درجة الصابرين إذ قال: ﴿**واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾[5]، وجعل الصبر وسيلة إلى إدراك آيات الله فى خلقه. وهل كشْف الباحثين عن الحقائق إلا بالصبر على الطلب والدأب فى البحث!

---

(١) الرسالة، ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠، ص ١٧٣١.
(٢) الرسالة، ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠، ص ١٧٣١.
(٣) الرسالة، ٩ نوفمبر ١٩٤٠، ص ١٧٨٧.
(٤) الرسالة، ٢٧ يناير ١٩٤١، ص ١٩٤١.
(٥) الأنفال / ٤٦.

كما جعل الصبر فى آخر درجات الفضائل حين عددها فى آية البر.. أما جزاء الصابرين فالظفر فى الدنيا والطمأنينة التى تلقى الشدائد ثابتة راضية ورضا الله تعالى وحسن الثواب فى الآخرة.

ثم تحدث عن **العفو** فى مقالة تالية عن العفو، وبيّن أنه خُلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ويكبر به عن المجازاة، ويتعالى عن أن يلقى الشر بالشر، والعفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب.

وسمى الله تعالى نفسه العفوّ. قال: **﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوّا غفورًا﴾**[1].

كما جعل العفو أقرب للخير فقال: **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾** [2]. كما أشاد القرآن بالعافين عن الناس. وضرب عزّام أمثلة عن العفو بما انتهجه رسول الله كما فعل يوم فتح مكة والجزيرة العربية فى سلطانه، وصناديد قريش طوع أمره، وقد لقى ما لقى منهم أكثر من عشرين عامًا، وفى كل بقعة من مكة والمدينة ذكرى ما لقى من ظلم وعدوان وأذى. فما مد إليهم يوم الفتح والقدرة يدا بعقاب، ولا جازاهم بما فعلوا ولا بأقل مما فعلوا، بل عفا عنهم عفوًا عامًا شاملاً. وكان أكبر أعدائه أعظمهم نصيبًا من عفوه ورحمته".

ثم خصص مقالته التى تلت ذلك للحديث عن **صلة الأرحام**.. فقال: "ومما أوكدّ القرآن الأمر ببرهم والإحسان إليهم ذوو القرابة. لأن القريب أعرف لقريبه وأدنى إليه، لذلك أكدّ كتاب الله الأمر بمودة ذوى القربى وصلة الأرحام ولاسيما الوالدان.

وقد عظم القرآن صلة الأرحام إذ قرن تقواها بتقوى الله تعالى حيث قال:

﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ [3]. ثم ختم سلسلة أحاديثه تلك عن أخلاق القرآن بقوله:

---

(١).النساء / ٩٩

(٢) البقرة / ٢٣٧.

(٣) النساء / ١

"تكلمت عن العدل والوفاء بالعهد، وعن الإحسان والصدق، والصبر والعفو ولم أرد أن استقصى أخلاق القرآن وآدابه فهى شريعة الإسلام الأخلاقية كلها وهى تهدى إلى ما بعدها، وترشد إلى ماوراءها". والقرآن الكريم كنز من الأخلاق لا يفنى ومنبع للفضائل لا ينضب. فليت المسلمين يرجعون إليه ليتبينوا سنته، ويتخلقوا بأخلاقه، ويتأدبوا بآدابه، لتكون لهم العصمة فى العصر المفتون، وقبسًا وعزّا من هذا الذل، واجتماعًا من هذه الفرقة، وعلمًا من هذه الجهالات وهدى من هذه الضلالات.

القرآن يدعو إلى أخلاق تسعد الناس فى معارك الحياة، لا يدعو إلى أخلاق الصوامع. ويختتم خاتمة بقوله الله تعالى: **﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾**[1]. ويقول: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا﴾** [2] **صدق الله العظيم..**

وتحدث فى الرسالة عن القرآن مرة أخرى تحت عنوان: "**من معجزات القرآن**" حيث تناول فى مقالتين متعاقبتين تفسير الآيات الأولى من سورة الروم، قدم لهذا التفسير بمقدمة تاريخية تناولت الأوضاع بين الإمبراطوريتين الكبيرتين أثناء نزول القرآن، وهما: إمبراطورية الفرس الساسانية التى استمرت من ٢٢٦م حتى مقتل آخر أكاسرتها وملوكها يزدكرد الثالث ثم القضاء التام على الإمبراطورية الساسانية عام٣١هـ ٢٠- ٦٥١م. والإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية واستمرار النزاع بينهما طوال عقود طويلة إلا فترات قليلة. تبادلا فيها النصر والهزيمة، حتى كانت سنة ٦٥١م حينما غلُب الروم فى أدنى الأرض إلى بلاد العرب، فى أرض الشام. وهى الهزائم التى أهمت العرب ونزلت الآية الكريمة:

---

(١) الإسراء/٠٩

(٢) الإسراء/ ٠٨٢

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ﴾[1]. وكان خبرًا عجيبًا، أنكره مشركو العرب، حتى راهنوا عليه كما أشار إلى ذلك الطبرى فى تفسيره.

وفى سنة ٦٢٢م أعد هرقل العدة لحرب الفرس، وانتصر الروم لأول مرة بعد عشرين عامًا، ثم توالى النصر فى آسيا الصغرى وأرمينية إلى أن عبر هرقل الفرات شطر الغرب والجنوب ٦٥٢م، حيث توالت هزائم الفرس حتى قتل يرويزكسرى الفرس. وذلك تأويل الآية الكريمة: ﴿**وهم من بعد غلبهم سيغلبون**﴾.

وتساءل عزّام عن أسباب اهتمام العرب بحوادث الروم والفرس، ولماذا أنزل فيها القرآن ، قرآنًا؟ فيذكر آراء المفسرين القائلة بأن مشركى العرب فرحوا بانتصار الفرس وهم أصحاب أوثان كالعرب المشركين، وبانهزام الروم وهم أهل كتاب كمسلمين، وقالوا للمسلمين سنغلبكم كما غلب الفرس الروم، فاهتم المسلمون وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية.

ويضيف عزّام: "ولا أحسب أن اهتمام العرب بالأمر كان لهذا السبب، والله أعلم، أن العرب قلقوا لغلبة الفرس على الشام وهى منقلبهم للتجارة، وقد ألفوا الروم فيها واتصلوا بهم بالتجارة وغيرها، واتخذوا من عامتهم وخاصتهم أصدقاءً وأعوانًا وتجارًا يعاملونهم ويبايعونهم. فكان الروم أقرب إلى عرب الحجاز ومن يتصل بهم من قبائل الشام وفلسطين، وكان العرب بهم أعرف وبينهم وبين الروم من الأسباب، ولهم فيهم من المنافع ما جعلهم يشفقون من غلبة الفرس على الشام، وزوال سلطان الروم فيها ثم كان مع انهزام الروم انهزام حلفائهم وأنصارهم من عرب الشام ولهم بعرب الحجاز صلات".

---

(١) الروم/ ١ ـ ٤.

وتابع حديثه فى المقالة المكملة بقوله: "لم ينزل القرآن للإخبار بانتصار الروم فقط، بل للإخبار بأن الأمر كله لله وأنه سينصر المسلمين على ضعفهم وقلتهم فى بضع سنين كما يَنْصر الروم.

والإخبار بغلبة الروم وحده فيه معجزة واضحة وبيان لصدق النبوة، ولكنه مع هذا لم يكن القصد الأول من الآية.

ويشير إلى أنه حين تمت الغلبة للروم ذهب هرقل إلى بيت المقدس فى أعقاب انتصارات توالت من القسطنطينية إلى بيت المقدس، فى ذلك الحين ذهب جيش إسلامى صغير إلى البلقاء (فى شرق الأردن) الأردن الحالية، فحارب جيشًا من الروم والعرب وتعرف تلك الموقعة فى التاريخ الإسلامى باسم"غزوة مؤته" فى السنة الثامنة من الهجرة. لم يهتم هرقل بهذه الواقعة أو لم يسمع بها. كانت فاتحة الغزوات الإسلامية التى نزعت الشام من سلطان هرقل وجعلته يقول وقد يئس من الشام: "سلام يا سورية سلامًا لا لقاء بعده"، ولم يكن بين تمام الانتصار لهرقل وبين تمام الهزيمة عليه فى الشام وتسلط المسلمين عليها إلا بضع سنين.

فبين غزوة مؤته وبين واقعة اليرموك ست سنوات من السنة الثامنة بعد الهجرة إلى السنة الرابعة عشرة.

على أن الله الذى له الأمر قد وضع للبشر سننًا للنصر والهزيمة، ومن سار على سنن النصر انتصر، ومن أخذ بسنن الهزيمة هزم، ليس الأمر متروكًا للفوضى أو الاتفاق.

فى هذه الآية إخبار بأن المسلمين سيفرحون بنصر الله حينما يغلب الروم والفرسَ، فهل نصر الله الذى يفرح به المؤمنون هو انتصار الروم؟ هذا بعيد وما للمؤمنين يفرحون بانتصار الروم وهم عدو لهم كسائر أمم الأرض التى كرهت هذا الدين الجديد حفاظًا على تراثها من أديان وأباطيل، ثم فى الآية: ﴿**وعد الله لا يخلف الله وعده**﴾[1]، فهل وعد الله المسلمين أن ينتصر الروم. لا. بعيد كل البعد أن يقال إن المسلمين يفرحون بانتصار الروم، وقد وعد الله المسلمين،

---

(١) الروم/ ٦.

انتصار الروم، إنما الوعد لمن يعود إليه الخير من الواعد، ولم يكن للمسلمين فى انتصار الروم خير.

بيّن جدّا أن الآية تبشر المؤمنين بنصر قد وعدوه، وأنهم سيفرحون بهذا النصر فى السنة أو السنين التى يغلب فيها الروم فما هذا النصر؟

"رجحت من قبل أن هزيمة الروم التى اهتم بها العرب فنزلت هذه الآيات سنة ٦١٥م، فالنصر الذى يفرح به المسلمون حين يغلب الروم فى بضع سنين من هذه الهزيمة، هو انتصارهم يوم بدر، وكانت واقعة بدر فى السنة الثانية فى الهجرة، أى سنة ٦٢٤ من الميلاد، وبين ٦١٥ ـ ٦٢٤ بضع سنين.

وقد روى أن خبر انتصار الروم بلغ المسلمين وهم فى غزوة الحديبية، وكانت الغزوة سنة ست من الهجرة، وهذه الرواية مردودة بدليلين:

الأول: أن بين الحديبية وبين هزيمة الروم فى الشام أكثر من اثنى عشر عامًا، ولا يقال لهذه المدة بضع سنين.

والثانى: أن الحديبية لم تكن نصرًا فرح به المسلمون، بل كانت صلحًا رأى فيه رسول الله خيرًا للإسلام وكانت عاقبته خيرًا، ولكن المسلمين حزنوا له حينما وقع ورأوا فيه إذلالاً لهم إذ رجعوا من مكة وقد خرجوا لدخولها والاعتمار بها.

تضمنت الآيات خبرين عن المستقبل صادقين، انتصار الروم وانتصار المسلمين، وتضمنت كذلك أنهما يقعان فى وقت واحد: ﴿**ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾[1]، ولكن مشيئته جرت على أن ينصر من يأخذ بوسائل النصر وفى القرآن الكريم: ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾[2].

فنصر الله لا يؤتاه من أساء عملاً، أو قعد عن التوسل إلى النصر، بوسائله، أو أخذ بأسباب الهزيمة، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلاً..

---

(١) الروم/ ٥.

(٢) الحج/ ٤٠.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾

هذا الوعد فى قوله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾[1]، وهو مطابق لوعد الله وسنته الدائمة أن ينصر المؤمنين، ويؤيد المجاهدين، ويمكّن الصالحين. **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. إلى .. فأولئك هم الفاسقون"..**

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ ﴾[2]. ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض".. إلى عاقبة الأمور﴾[3]. فلا يَقْعُد أحد ويرجو ثواب الساعين، ولا يفرط وينتظر جزاء المجدّين، ولا يقصر ويبغ أجر المجاهدين"، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.. إلى.. الأوفى﴾[4]...

وتحت عنوان: **أمم حائرة،** كتب فى مجلة الرسالة عددًا من المقالات بلغت أربع عشرة مقالة[5] بدأت بعنوان يلى العنوان الأكبر وهو أمم حائرة، حيث خصص لكل مقال تحت هذا العنوان عنوانًا اختصت به المقالة، فجعل العنوان الخاص للمقالة الأولى:

"فوضى الآراء والأعمال"....

رأى فيها أن المسائل الكبرى التى كانت شغل الفلاسفة والعلماء فى العصور السابقة وضعت فى هذا العصر، وتدعى كل طائفة وكل فرد أن له الحرية كاملة مطلقة فى أن يعلن رأيه، وينشره على الناس بشتى الوسائل، ويدافع عنه بكل الطرائق، فإن أعوزته الحجة، وخذله البرهان.. فلا بأس عليه أن يكذب ويخدع ويفترى ويلبس الحق بالباطل،ويبذل المال إن استطاع، ويستعين بالشهوات إن قدر..ويتوسل بكل ما عرف الناس من وسائل الدعوة أو الدعارة.

---

(١) الروم/ ٤.

(٢) النحل/ ١٠٥.

(٣) الحج/ ٤١.

(٤) النجم/ ٣٩.

(٥) الرسالة اعتبارًا من العدد ٨٢٥ ، القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ من جمادى الآخر سنة ١٣٦٨هـ ـ ٢٥ إبريل ١٩٤٩ ،السنة السابعة عشرة، حتى العدد ٨٣٩ أول أغسطس ١٩٤٩.

فإن لم تُجد الدعوة، ولم ينفع الخداع والتلبيس والتسميع والتشهير، فلا بأس أن يوجه حريته إلى الإخلال بالنظام وإشاعة الفوضى، وعمل كل ما يذهب بسكينة الجماعة ويخل بأمنها، ويقضى على طمأنينتها، ويَصرفها عن عملها كل هذا بدعوى الحرية.

صارت هذه الحرية البائسة كلمة تقال فى الحق والباطل، وينادى بها فى الخير والشر. وأين هؤلاء الأغرار من أخلاق الأحرار؟ لقد اشتبه عليهم الأمر، والتبست عليهم السبل، فهم فى أمر مريج. والحرية المظلومة يضل بها هؤلاء وهؤلاء. وما هى الحرية، ولكنها العبودية. عبودية المال، عبودية الشهوات. ولابد للناس من سنن صالحة، وقوانين حازمة، تحمى الأغرار من عبث الفجار، وتصون الناشئين من تضليل المضللين، وتعصم الشبان من التهافت فى هذه النيران.

ويرى أن هذه فوضى الأخلاق بعد فوضى الأفكار.

وجعل العنوان الخاص للمقالة الثانية: "**طغيان المادة وضعف الروح**" رأى فيها أن العقل كشف أسرار الطبيعة فاخترع عجائب العلوم والفنون والصناعات وغيرّ تاريخ البشر كله. واهتدى الناس إلى سنن الحكومات ونظم الجماعات، ضبطت كل شىء بالنظام والقانون.. ولكن الأنفس لم تساير العقول، والرقى الروحى لم يدرك الرقى الحسى، وليس عجيبًا أن يسمو العقل، ويتسع العلم، ولا تسمو النفوس، وأن تتقدم الأفكار، ولا تتقدم الأخلاق، فتصرف العقل أكثره فى أمور خارجة عن نفس الإنسان، وإدراكه... إلى العلم ترجع الحضارة الصناعية القائمة على قوانين الطبيعة الخارجة عن نفس الإنسان.

أما النفس الإنسانية وملكاتها وحالاتها ونزعاتها، فأمور وراء هذا كله وهى حقيقة الإنسانية.

هى التى تدرك الجمال والقبح، وتميز بين الخير والشر وتقبل على الفضيلة وتنفر من الرذيلة، وهى مناط الأخلاق والعواطف والرذائل، وإلى هؤلاء ترجع الحضارة الإنسانية وما يتصل بها من آداب وسنن وماديات ونحوها.

ومن أجل أن العلم يتصرف فى قوانين طبيعة خارجة عن نفس الإنسان كانت العلوم غير مختلفة بين الأمم فى قوانينها، فلا تختلف الرياضة أو الكيمياء بين أمة وأمة، إلا بمقدار ما تزيد أمة عن أمة إلى أخرى يسيرًا.

وأما الحضارة الإنسانية، فهى تختلف باختلاف الأمم والأفراد ويعسر أن تنقل من أمة إلى أخرى. إذ هى متصلة بصميم النفس، مرتبطة بالعواطف والأخلاق والتاريخ والآداب. ولكل أمة فى هذا خصائصها، ولها مزاياها ونقائصها.

ويرى أن المجال ليس مجال الإفاضة "ولكنى أردت أن أشير إشارة عاجلة إلى أن العلم والصناعة لا يسايران الآداب والأخلاق كل حين.

وغاية القول: أن الفجوة بين العلم والأخلاق، ومسافة الخُلف بين العقل والروح من أسباب الاضطراب والقلق والضوضاء والصخب والشقاء، التى تحيط بالإنسان بعد أن سخرّ الأرض والماء والهواء"...

أما المقالة الثالثة فى هذه المجموعة فهى بعنوان: "**نحن والمدنية الأوروبية**"، وهى من الموضوعات التى شغلت المثقفين والمفكرين بعد النهضة الأوروبية وما ترتب عليها من تقدم صناعى هائل، وبعد انفصال الدين أو الكنيسة عن الدولة فى أوروبا، وبعد اتهام الدين بأنه أفيون الأمم، يحول بينها وبين التقدم والرقى، وظنّ بعض المفكرين أن ما ينطبق على أوروبا وعقيدتها ودور الكنيسة فيها، يمكن أن يقال عن الإسلام وأهله...

فبدأ بقوله: أعنى بكلامى هذا الأمة المصرية أولاً، ثم الأمم المشابهة لها المتصلة بها من العرب ومن المسلمين، بما تشابهت أحوالهم فيما ورثوا من حضارة قديمة، وبما تقارب نظرهم إلى الحضارة الحديثة.

طلعت هذه الحضارة على الشرق مع قوم يعدهم الشرقيون ـ لاسيما العرب المسلمون ـ أعداء، سجل التاريخ كثيرًا من حروبهم ووقائعهم، ولم يخل عصر من إغارتهم على المسلمين أو إغارة المسلمين عليهم منذ انتشر الإسلام فى غربى آسيا وشمالى إفريقية وفى جنوب أوروبا، إسبانيا وجزر البحر الأبيض ثم البلقان.

وظهرت هذه الحضارة والنزاع مستمر، والمعارك دائرة، ولم يغير أصحاب هذه الحضارة من خططهم، بل استعانوا بما أمدتهم به الحضارة الحديثة من علم وصناعة فى الغلبة والسيطرة على من عجزوا عن قهرهم وتذليلهم من قبل.

فلم يكن بد من أن ينفر هؤلاء من الحضارة التى طلعت عليهم بين الحديد والنار، وطلعت مشوبة بكثير مما يخالف عقائدهم وآدابهم وسننهم، وسرعان ما أيقن المدافعون عن أنفسهم من أهل الشرق أنهم مغلوبون لا محالة، إن لم يدفعوا هؤلاء الأعداء الأشداء بمثل سلاحهم. فلم يجدوا مناصًا من أن يأخذوا من أوروبا حضارتها الصناعية على قدر الطاقة.

ولم تكن هذه الحضارة موضع تردد. إذ دعت إليها ضرورة الدفاع عن الأنفس والأوطان ولم تكن موضع ريبة؛ لأنها قائمة على قوانين طبيعية لا تختلف فى المشرق والمغرب، ولا تلائم أمة دون أخرى. وهى لا صلة لها بالدين والأخلاق والآداب والعادات والعرف والطباع ونحوها.

أخذ المسلمون الحضارة الصناعية على قدر ما مكنهم علمهم وخبرتهم وأحوالهم، وعلى قدر ما يسرت لهم أوروبا الأخذ. أخذوا نتائج هذه الحضارة الصناعية، وحاولوا أن يأخذوا ما تعتمد عليه من علوم وفنون.

ثم أخذوا كذلك ما لم يجدوا مناصًا من المسارعة إليه من نظم للجيوش ونظم للدولة ونظم للإدارة.

ثم زاد اتصال الغرب بالشرق بالاقتباس والاقتداء، ثم بغلبة الأوربيين على كثير من أقطار المشرق وإقامتهم فيها واختلاطهم بأهلها.

وأخذت هذه الحضارة أمم الشرق بالرغبة والرهبة والزينة، فسايروها راضين وكارهين، وعارفين ومنكرين، وافتتن كثير من الناس فرأوا كل ما أتى من أوروبا حسنًا، وكل ما ورثه الشرق من تاريخه قبيحًا، وزادت هذه الحضارة إغراءً بما ازينت به من مناظر وما اتصلت به من لذة ولعب ولهو. فلم يقو على معارضتها والصبر على فتنتها إلا القليل.

واشتبهت الأمور، وانبهمت السبل والتبست الأشياء، فلم يفرق الناس بين الطيب والخبيث، والنافع والضار، ومعروف ومنكر.

ولم يفرق الناس فى هذه الفتنة بين الحضارة الصناعية والحضارة الأخلاقية ـ ولم يميزوا بين ما يلائم وما لا يلائم، فقاسموا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر، وقاسموا العقائد والمذاهب، على السيارات والطائرات والغواصات والمدمرات... (وغُلب الناس على أمرهم حتى اختلف القول والعمل، فترى الإنسان ينكر الشىء ويفعله سيرًا مع الدهماء... وبلغت الفتنة أن قال بعض الكبراء وأنا أحاوره فى الطريقة المثلى: " إن الطريقة المثلى هى الواقع").

وقد أنكرنا أنفسنا وحقّرنا ما عندنا وأعظمنا ما عند غيرنا وأخذتنا الرهبة والروعة من كل جانب. وكم زرينا على أشياء ورثناها وعرفناها، حتى أخذها أهل أوروبا وأعجبوا بها فنقلناها عنهم، ورضينا بها إذا رجعت إلينا من بلادهم كما هجرنا الهندسة العربية فى الأثاث وغيره، ثم حكيناها فى الإعجاب بها فاتخذناها بعد أن سميناها "أربسكا".

والإنسان فى هذا الضعف والخوف لا يصح له رأى ولا تستقيم له طريقة، وكيف يصح الرأى إن لم يعتدّ الإنسان بنفسه ويثق فى عقله، ويعرف أن له كيانًا واستقلالاً وأن له الحق أن يأخذ ويرد ويستحسن ويستنكر!

إن الحياة التى لا تشعر بنفسها، ولا تستمد قواها، ولا تستعين بمواهبها، لأشبه بالموت، لها صورة الحياة وليس فيها حقائقها.

عظمت حيرتنا فى التقليد على غير هدى، وقلقنا من المحاكاة على غير بينة. ليتنا حين أخذنا عن غيرنا أخذنا الجليل والحقير، وحاكينا فى الجد والهزل! وكم فى الغربيين من قدوة صالحة، وأسوة نافعة وخطة حميدة.

ولكن عظائم الأمور لها وسائل من الكد والدأب واحتمال المشاق والصبر عليها. وللمجد مصاعد شاقة، وتكاليف مرهقة.. وسفساف الأعمال هينة، قريبة لذيذة يستطيعها كل من شاءها، ويهبط إليها من لم يكلف نفسه الصعود. فقد أسرعنا فى هزل الغربيين، ولهوهم ومظاهرهم، وشق علينا أن نضطلع بكثير مما اضطلعوا به وعملوا له، فى نظام محكم وخطة شاقة ودأب لا يكل.

لسنا جاهلين بمحاسن الحضارة الحديثة وفضائلها ومزاياها، ولا غافلين عن لذاتها ومتعها، ولكنا لا نجهل كذلك رذائلها وعيوبها، ولا نغفل عما وراء لذاتها من مهالك للأمم ومفاسد للجماعات.

ولكن الأمانة التى فى أعناقنا للأمة، والواجب الذى علينا لها، البصر بما وراء المظاهر، وإدراك ما بعد الحاضر، كل أولئك يعنى المفكر، ويقلقه ويسلط عليه همومًا لا تنام ولا تنيم، فيلزم نفسه الدعوة إلى الإصلاح والأخذ بالأشق وحرمان نفسه من كل ما يأباه الوجدان اليقظ والعقل الصحيح.

وخصص المقالة الرابعة للحديث عن "**الهداية والرقابة**" [1]

يرى أن ليس فى الهداية والرقابة جور على الحرية، فإن الحكومة والهيئات الأخرى مشتقة من الأمة قائمة باختيارها ورضاها، والأمة تغتبط بأن تعتد بكل نظام صالح، وتُربط بكل خلق كريم وسنة حميدة، وتصد عما يضربها ويذهب بسعادتها.

لابد من عقل رقيب، وفكر ناقد، ورأى سديد. ولابد أن يكون للعقل والفكر والرأى طريق يؤدى إلى الناس نصيحتها ونظام يعرّف الناس بدعوتها، وقانون ينفذها.

ثم الصحف والمدارس وما خطبها فى التقويم والإصلاح والقيام على النشء والإشراف على الجماعة. إن خطبها لعظيم. فأين هى من احتمال الأمانة والاضطلاع بالعبء وتأدية الواجب. ثم يتحدث عن كل منها وبدأ بالصحافة وقال: هى من نعم هذا العصر ومحاسنه، وهى من نقمه ومساوئه وهى عظيمة الخطر كبيرة الأثر فى الجماعات.

إن الصحافة..خبر ورأى ودعوة وتعليم، وشروط هذا كلها: التثبت والنقد وقصد الحق والخير والإخلاص ابتغاء وجه الله..

---

(١) الرسالة: العدد ـ ٨٢٨، ١٦ مايو سنة ١٩٤٩م.

فليس كل ما يسمع من الأخبار يرُوى قبل التثبت والتحرى، وليس كل ما يصح مع التثبت والتحرى ينشر حتى ينظر أهو جدير بالنشر؟ أيستحق أن يذكر؟..

ومرجع هذا كله إلى وجدان القوّام على الصحف وعملهم وبصرهم وإخلاصهم، وإن لهم من أولئك رقيبًا أكبر من كل رقيب وأعظم شأنا وأقوى سلطانا من الحكومات والقوانين.

أما الرأى فعماده، علم ونظر وترو، فإن رُمى بالرأى دون إحاطة بموضوعه، أو دون تفكير فيه، أو بغير الرويّة كان حريًا أن يبعد من السداد، وأن يخذله الرشاد، وكان خليقًا أن يضل ويُضل ويُفسد ولا يُصلح.

أما الدعوة فينبغى أن تكون إلى الأخلاق العالية والسنن الصالحة يدعى إليها بكل وسيلة، وينبغى أن يحذر كل الحذر من الدعوة إلى التحلل من الأخلاق والفرار من التبعات، فإن النفوس قد احتملت أعباء الواجب وصهرت عليها ولم تبال بما فيها من مشقة وحرمان؛ ابتغاء ما هو أعلى وأشرف وأعظم؛ ابتغاء الحق والخير وإيثارًا لما هو أجل من خير الناس وسلاحهم.

أما التعليم فكذلك يعمل له الفكر والنظر، ويختار ما هو أنفع للناس وأقرب إلى الصواب من الأمور النفسية والآفاقية على هدى وإرشاد التجارب وهلم جرا.

وتحدث فى المقالة الخامسة[1] عن "**المدارس ودور العلم**" وقال: نريد مدارسنا ومعاهدنا دور تعليم وتثقيف، ومباءة إصلاح وتهذيب ومصدر محبة ومودة وألفة وأخوة، يتجلى فيها الخضوع للقانون، والإجلال للنظام والقيام للواجب، وإيثار الخير العام، نريد أن يكون بين المعلمين والمتعلمين ما بين الأب الرحيم والابن البار. نريد أرواحًا لا أجسادًا، وأشخاصًا لا أعدادًا، ومعانى لا ألفاظًا وحقائق لا صورًا.

وتحدث فى المقالة السادسة عن: "**الأسرة**"، ويقول: "لو أتت المدنية الحاضرة بكل صناعة وكل علم وكل نظام وكل متاع، وذهبت بسعادة البيت، فقد باءت بالخسارة وعملت للبوار".

---

(١) الرسالة: عدد ـ ٨٣٠ ـ ٣٠ مايو سنة ١٩٤٩م.

ولو جاءت الشيوعية بكل طعام وشراب لكل إنسان بغير عناء، ومتعت الإنسان بكل متعة، ويسرت له كل لذة ثم حرمته أسرته، وسلبته رحمة الوالدين وبر الأولاد وعواطف الأمومة والأبوة والبنوة، لكانت قد ربت له الجسد وسلبته الروح، وباعدت بينه وبين لذّات الروح التى لا تُعد ولا تحد، ولكانت قد ردته حيوانًا لا إنسانًا، ويسرت له العلف وسلبته الإنسانية!. يقول عن الأسرة: "تعالوا إلى العش يأتلف فيه الزوجان على الخير والشر، والنفع والضار، يأوى إليه الزوج مجهودًا فتمسح تعبه يد رحيمة، ويدخله غاضبًا فترضيه كلمة حكيمة، ويفر من ضوضاء الأسواق وكد العيش ونصب العمل، فيظفر بالهدوء والسكينة والقرار والطمأنينة[1]، فيتلو الآية الكريمة: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** [2].

إلى دار الأمومة والأبوّة، والبنوة الأخوة، حيث الأم على أولادها مقبلة، ولتربيتهم عاملة، ولنومهم ساهرة ولراحتهم جاهدة. الأم مبعث الشفقة والرحمة، وموئل البر والعطف، أعظم الناس عملاً، وأبلغهم أثرًا، وأرفع الخلق مكانة، وأعلاهم منزلة، وأحسن الناس حملاً للأعباء، وأصبرهم احتمالاً للأمانة، الأم التى تحمل الأمم وتضعها، وتربيّها وتنشئها وتزكيها وتعلمها.

والأب يغدو ويروح بثمار كدّه، ونتاج سعيه، فيضع ما فى يده من تعب، وما فى فكره من كدّ، وما فى نفسه من هم، وما فى قلبه من بغض، ساكنًا إلى زوج كريمة هى أم رحيمة. الوالدان اللذان عظّمهما القرآن، وكاد يؤلههما الإسلام، فذكرهما مع الله وقرن البر بهما بتوحيده..

---

(١) الرسالة: عدد ـ ٨٢٨ ـ ١٦ مايو سنة ١٩٤٩م.

(٢) الروم/ ٢١.

ويقول: "الأسرة سر الله فى خلقه، وآيته فى عباده".

ويقول: "احذروا أن تحرم الإنسانية هذا الينبوع الطاهر الذى يُمد بالعواطف رقراقة، وبالأخلاق صافية، فتقسوا القلوب وتذبل الأخلاق ويضل النشء فى الطرق والأسواق وما إليها..

إنى أرى الأم تخُدع عن سلطانها فى البيت، وتُنزل عن عرشها فى الأسرة، وتُضلل عن منزلتها، وتُفتن عن واجبها، فيقال لها: دعى البيت إلى السوق، واهجرى الأولاد إلى المصنع، اتركى تدبير الأسرة إلى تدبير شؤون العامة.

وأرى الوالد يستبدل بداره الأندية، وبأسرته جلسات المقاهى، ويسهو عن كثير من تبعاته.. وأرى الولد يقسو على والديه.. إنى أرى صلة بين الوالدين والأولاد تهن، وسلطان الوالدين على الأولاد يضعف، وأخشى إن لم تتدارك الأمور أن تزلزل أركان الأسرة،.. وكيف تقوم الأمة على قواعد واهية وأركان متداعية؟!: إنى أخاف على الأسرة، وأشفق على البيت ـ الجنة والمعبد والمدرسة ـ أن يستباح حماه، وتدخل الفتن إلى مغناه... والمرأة وقاية من هذا الشر، وطب لهذا الداء، وشفاء لهذه العلة.."وأفرد للمرأة فى هذا العنوان العام (أمم حائرة) مقالات ثلاث تحت عنوان: "المرأة فى هذا العصر"، وافتتح المقالة السابعة بما اختتم به المقالة السادسة.

الأولى: أنه لا يمكن أن تقع خصومة بين الرجال والنساء، فيكون الرجال فريقًا والنساء فريقا.. ذلك أن الرجل أبو المرأة وابنها وأخوها، والمرأة أم الرجل وبنته وأخته.

والثانية: وهى لا جرم متصلة بالأولى، أن المخالفين فيما يدّعى للمرأة فى زماننا، ويطلب باسمها فى أيامنا، لايخالفون استخفافًا بشأن المرأة، واحتقارًا لمكانتها، وإنكارًا لفضلها، وغفلة عن أياديها. بل المخالفون من أولى العلم والفكر والرأى يخالفون فى بعض هذه المطالب إعظامًا بشأن المرأة، وإجلالاً لها وإكبارًا لمكانتها، واعترافًا بفضلها، ومعرفة بأياديها.

يرون فى هذه الدعاوى تعظيمًا ظاهرًا، وتحقيرًا باطنًا، ورحمة فى القول، وقسوة فى العمل، وتحريرًا من الوهم، وتسخيرًا فى الحقيقة. ويخافون أن تمتهن كرامتها، وأن تبتذل صيانتها، ويخافون أن تستبدل بكرامة الأمومة وعزة الزوجية، ذل الخدمة، وأن تعطى بحرمة البيت ابتذال السوق، وأن تهمل جمال الخلقة ونضرة الطبيعة إلى زيف الأصباغ والألوان.

المقدمة الثالثة: أن للمرأة حقوقًا لا تنكر، وعلى الجماعة للمرأة واجبات لا يرقى إليها خلاف، ونحن ـ المسلمين ـ سبقنا إلى تكريم المرأة، والإشادة بحقها وفضلها، وحسبنا من آيات كثيرة هذه الآية الجامعة: ﴿**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**﴾[1]. وحسبنا من أحاديث كثيرة هذا الحديث: "سووا بين أولادكم فى العطية، ولو كنت مؤثرًا أحدًا لآثرت النساء".

وقد اعترفنا ـ قبل غيرنا ـ بحق المرأة فى الميراث والملك، والتصرف فيما تملك بكل الوجوه، وتوليها كل أنواع العقود ـ أمور لم تنلها المرأة الأوروبية فى بعض الدول حتى يومنا هذا.

ودعونا المرأة إلى التعلم وفرضناه على النساء والرجال سواء، وزخر تاريخنا بالمحدثات والفقيهات والأديبات والشاعرات.

بل بلغنا فى تدليل المرأة أن قال فقهاؤنا: إن المرأة لا تلزم بخدمة دارها إن كان الرجل قادرًا على أجرة خادم.. وهذا موضوع يتسع فيه القول.

ولا ننكر أن هذه الشريعة العادلة، وهذه السنة الكريمة، غطى عليها الجهل فى أوطان وأزمان، كما غطى على حقوق كثيرة للجماعات، وأن المرأة ظلمت وما تزال مظلومة فى بعض البلدان أو بعض الطوائف، وأن علينا أن نأخذ بيدها وندفع عنها ونرد إليها كرامتها ومكانتها، ونعترف بسلطانها فى الأسرة، ويدها على الأمة.

---

(١) البقرة / ٢٢٨.

خلص عزّام بعد هذه المقدمات إلى أن الخصومة فى قضايا المرأة، ليست خصومة بين الرجال والنساء، وأن المخالفين فى هذه القضايا لا ينقصون من قدر المرأة بل يعظمونها، وأن أحدًا لا ينكر أن للمرأة حقوقًا على الجماعة يجب أن تؤدى إليها، وفضلاً على الأمة يجب أن تعترف به.

بعد هذه المقدمات يضيق مجال الخلاف، ويُحد موضوع النزاع.. علام الخلاف إذاً بين المختلفين؟ وفيم الخصومة بين المختصمين؟

الخلاف كله أوجله فى هذه القضية:

يقول قائلون وقائلات: "إن مكان المرأة دارها، ومملكتها أسرتها وموقعها بيتها، وعملها القيام على العش وإسعاد نفسها وزوجها وأولادها فيه لا تتجاوز هذه المملكة أو تهملها إلا معتدية ظالمة، ولا تخر منها أو تقهر فيها إلا معتدًى عليها مظلومة".

وتقول جماعة أخرى: بل للمرأة السوق والمصنع والمنصب، ومعترك السياسة، والمقهى والملهى والمرقص وما وراء ذلك.. ولها أن تزاحم الرجل بالمنكِب فى كل مُزدحم، وأن تغالبه فى كل معترك".

يستطرد عزّام ذاكرًا ما أصاب المرأة من التحرر الزائد ويذكر محاورات بين الفريقين:

ثم يقول: "إن الكلمة الجامعة فى رأينا أن المرأة للدار، والدار للمرأة فكل ما ينأى بها عن الدار، ويحرم الدار تدبيرها محرم عليها إلا ما اضطرتها إليه الضرورات، والضرورة شر ينبغى دفعه، وفساد فى الجماعة يجب إصلاحه.

وللمرأة أن تتولى كل عمل يلائمها ولا يقطعها عن أسرتها، ولا يخل بشؤون بيتها، ولا يحرم أولادها تربيتها ورعايتها، ولا يسلب زوجها إيناسها وإسعادها، والأعمال التى على هذا الشرط كثيرة.

للنساء مجال فسيح فى أعمال البر والرحمة من تربية الأيتام والقيام لهم مقام الآباء والأمهات بالشفقة والحنو، والعمل لتعليمهم وتهذيبهم.. كل أولئك وأمور أخرى مثلها المرأة بها أولى،وهى أحسن قيامًا عليها بالرأفة والشفقة واللين والرفق والحلم والصبر.

فلسنا ندفع المرأة عن هذه الأعمال وما أكثرها، وما أعظم العمل فيها، برّا بالأمة وإحسانًا إلى الجماعة. تستطيع النساء أن يعملن هنا ما يعجز عنه الرجال عملاً دائبًا فى غير دعوى و لا جلبة، ولا جدال ولا خصومة. ولكن كثيرًا من نسائنا مولعات بالقيل والقال، مغرمات بالبطولة والزعامة".

ويختتم هذه المقالة بقوله: "ورحم الله الغزالى (الإمام أبو حامد الغزالى)! كان يسمى المسائل التى يشتد فيها الجدل ويتمادى عليها النزاع "بالطبوليات" .

ويرى أن كثيرًا من فقهائنا يؤثرون هذه الطبوليات الجوفاء على العلم النافع والعمل الصلح والجهاد الخالص لوجه الله.

فما أشد ولوع بعض نسائنا ورجالنا بالطبوليات، يُملأ بها الجو ضوضاء، وتُشغل الأمة عما هو أجدى وأعظم وأولى لسعيها وجدها وإعدادها فيما تتصدى له من خطوب.

وتحدث المقال التاسع عن المرأة والانتخاب. بدأه بقوله: ثار جدل واشتد نزاعٍ على اشتراك المرأة فى الانتخاب، وحسبى فى هذا المقال أن أصور للقراء جدالاً فى مجلس ضم جماعة من أولى العلم، تختلف آراؤهم فى هذا الشأن بين مؤيدٍ لمطالبة المرأة أو المطالبة لها بالانتخاب، ومنكرٍ لهذه المطالب. فبدأ أحد المتكلمين الجدال إذ قال:

"حق للمرأة كيف يجحد، وكرامة لها كيف تهان، ومشاركة فى تدبير أمور الأمة كيف تحرّم عليها؟! لا أرى لمنكر حجة ولا لمخالف عذرًا".. إننا لا نرضى لطلبة العلم أن يعملوا بالسياسة فيتفرقوا شيعًا.. ونود أن تكون معاهد التعليم

للأمة كلها. يجمع طلابها الحق، ويؤلف بينهم العلم، ويؤكد إخوتهم التعاون على كل بر والجهاد لكل خير. وقد خبرنا من عمل السياسة فى الطلبة ما خبرنا، وبلونا من شرها ما بلونا..

ونحذر أن تمتد ضوضاء السياسة إلى سكينة البيت وخلاف الأحزاب إلى وفاق الأسرة . من شؤون الأمة لشئون ينبغى أن تتنزه عن الجدال، وتصان عن النزاع والخصام، وأولها شئون البيت.

وأن الأمم تنأى بالجيوش عن معارك السياسة، وخصومات الأحزاب، لأنهم للوطن كله، وللأمة جميعًا، والوطن واحد والأمة واحدة. وشئون أخرى لا تصلح إلا باجتماع الرأى فيها، واتفاق القلوب عليها. وشؤون الأسرة أولى هذه الشؤون بالتنزه عن التحزّب، والتطهر من التعصب. والمرأة ربه الأسرة، وملكة البيت، تنشر فيهما السلام والسكينة.. مثل لنفسك زوجين اجتمعا على مائدة، وقد تعصب كل منهما لحزبه وجادل عنه، واستمع الأولاد لجدال الأبوين، والجدال طريق الخصام. ثم انظر كيف تكون العاقبة. هذا جانب من جوانب عمل النساء فى السياسة.

نناشدكم الله والوطن أيها الدعاة أن تدعوا لنا المرأة نسكن إليها، ونتعلم إلى جوارها الحب والود، والسلام والبر.

ويرى آخر حجبًا كثيرة تؤيد مشاركة النساء، فكل أمة لا تشارك نساؤها فى الانتخاب والنيابة، لا يصح تمثيلها، ولا يجوز فى الحق تصرفها.. هذه حجة دامغة فيكف تحتالون لدفعها؟!

إن فيصل الأمر بيننا وبينكم أن تبدأوا فتعرفوا آراء النساء فى قضيتهن هذه، أيُردن الانتخاب أم يأبينه، أيحرصن عليه أم يزهدن فيه؟ فاستفتوا النساء قبل أن تطلبوه لهن، واسألوهن قبل أن تدّعوا عليهن!

تعرفوا رأى النساء فى أمرهن، ولا تفتروا عليهن، ولهن القول الفصل، وعلينا السمع والطاعة.

أخذت المجادل سورة الحجة، فوجم وفكر، وانتهز الحاضرون الفرصة، فأنهوا الجدال وانفض المجلس[1].. وخصص المقال العاشر للحديث عن سبل الهدى والطمأنينة..

فيرى "أنه لابد للنفس ممّا يقيمها على طريقة ويسيرها على نهج ويوجه رغباتها وجهة واحدة ويجمع نزعاتها على سنة بينة.. والذى يقيم النفس على طريقة، ويعرفها منهجها فيما تهم به وفيما ينزل بها، هو العقائد الراسخة والقوانين الواضحة، عقائد الدين، وقوانين الأخلاق، وشرائع الأمة كلها، فإذا ثبتت النفس العقائد، وقومتها الآداب، ووضحت أمامها القوانين خضعت أهواؤها للحق، واتفقت نزعاتها على الخير، وسارت فى أعمالها على قوانين تطمئن بها..

وإن لم تئِل النفس إلى عقائد دينية، وترجع إلى مذاهب معروفة، لم تستطع السير على طريقة، ولا العمل على قانون، واضطربت فى شدتها ورخائها.. وكانت نهبًا لنزاعات مختلفة.. وكانت عرضة للحيرة فى كل آن.

والحيرة هى تفرقة الفكرة، بل تقسيم النفس، ولا يبلى الإنسان فى حياته بشر من الحيرة. إن نزعات الإنسان كثيرة مختلفة، نزعات إلى اللذة وإلى الغلبة والسيطرة وإيذاء من يخالفه، وحَسد من يفضله، والبغى عن من يحسده.

والجماعة كالنفس الواحدة تؤلف بينها العقائد وتهديها الشرائع وتنشئها التربية على العمل بالعقيدة وإطاعة الشريعة، فتجتمع آحادها وتتعاون أفرادها.

فالعقائد والمذاهب والشرائع هى وسائل الوفاق فى النفس الواحدة وفى الجماعة، وعلى قدر قوتها وصحتها تكون قوة الائتلاف وصحته، وتكون استقامة الواحد والجماعة على العمل الصالح.

وهو يحب ويبغض ويسكن وينفر، ويرضى ويغضب، وفى كل هذا نزوات ونزعات.

---

(١) الرسالة : العدد ـ ٨٣٤، ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٩م.

وناقش فى المقال الحادى عشر[1]: الإيمان بالله وأهميته كحياة للنفوس يملأ النفس عظمة وقوة، وتصغر أمامها الأهوال، وتذلل العقبات فتنطلق كأنها إرادة الله فى خلقه، وقدره فى عباده. ولله من عظماء أقدار.

والإيمان بالله الواحد السلام، يُوحد النفس ويملؤها سلامًا ووئامًا والإيمان بالله الذى لا يحده زمان ومكان، يطلق النفس من قيودها ويخرجها من حدودها ويرفعها على الزمان والمكان.

وإذا أضاء الإيمان بالله فى سرائر الإنسان، وعمل فى نفسه فجمعها ورفعها ووصلها بالحق والخير.. وأحكم قولها، ووحّدها وملأها سلامًا ووئامًا.. ثم أطلقها من قيودها.. عملت جاهدة مصلحة راضية صابرة، وأدركت اللذات الروحية وأنست بها، وسكنت إليها، وكلفت بالسلام والوئام، وبكل ائتلاف واتفاق، ونفرت من كل اضطراب واختلاف وتفرق وتنافر.

وخصص المقال الثانى عشر للحديث عن "**العدل**" وكيف أن النفس إذا أهلت للعدل، وسكنت إليه وآثرته كانت أهلاً لأداء الأمانة التى قال فيها القرآن: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**﴾[2].

وكانت أهلاً لخلافة الله فى الأرض، أى القيام بعدله بين خلقه وجهدت للارتقاء إلى منزلة العدل، العدل المطلق. الذى به يزول البغى والعدوان والظلم والطغيان.

وإذا قامت فى أمة أئمة يدعون إلى العدل ونبغ فيها قادة تسير عليه وتعمل به وصرّفوا الأمور بالعدل المطلق، وأخذوا الناس به طوعًا وكرهًا عمت الأسوة، وسكن الناس إليها وغلب العدل فى قلوب الناس وأعمالهم واستقرت عليه الأمور وشاعت به المحبة والسلام.

---

(١) الرسالة : العدد ـ ٨٣٧، ١٨ يوليو سنة ١٩٤٩م.

(٢) الأحزاب /٧٢.

وجعل العنوان الخاص فى المقال الثالث عشر "**العدل**" أيضاً، أى تكملة للمقال السابق. ويقول فى نهايته:

"إن البشر لا يجتمعون على الأهواء المختلفة، ولا يأتلفون على الشهوات المتفرقة، فلا مناص لهم - إن أرادوا السعادة - أن يحكّموا العدل فى الأهواء والشهوات ليجمعهم على شرعة، ويشملهم بقانون، ويربط بينهم بالحق ويحكم بينهم الأخوة.

ولن يستطيعوا هذا حتى تغلب الروح المادة فى أنفسهم وتنتصر القوانين على الجزئيات فى معيشتهم، قوانينُ الحق والعدل والخير.. ولن يبلغوا هذا المستوى إلا بإيمان ينير النفوس ويطهرها ويرفعها ويعظمها".

وخصص المقالة الرابعة عشرة للخاتمة. موضحًا أن العدل وهو شريعة لا تناقض فيها. حيث تسكن أنفس الآحاد والجماعات التى يدير العدل أمورها، ثم يشيع السلام والوئام فى أمور الجماعة جليلها ودقيقها. والسلام هو سعادة الأحدان والجماعات، ثم إن الإيمان بالله يؤدى إلى العدل وفضائل أخرى والعدل يؤدى إلى السلام، والسلام قوام السعادة.

ونحن فى عالم تتصادم آراؤه لأنها لا ترجع إلى أصل يُوحّد بينها، بل تنشأ عن نزعات ونزعات؛ ولا منجاة من التصادم والتخالف والتقاتل إلا بالسمو عن الأهواء إلى الحق وعن الظلم إلى العدل، وعن الأحداث الجزئية إلى القوانين الكلية.

ويقول: إن هذا الكلام الموجز عنوان لمعان لا تحد، يعيا عنها البيان وتحسر فيها العقول والألسن والأقلام، وإنما هو إشارة إلى عالم فسيح، للعقل فيه مراد، وللوجدان فى أرجائه مجال.

فليفكر المفكرون، وليتأمل المتأملون، وليدُع المصلحون، وليضرب الأخيار الأمثال، وليبينن هذا للناس كل من أوتى نصيبًا من العلم وحظًا من الرأى: غير

آل جهدًا ولا مقصرًا فى فكر أو عمل حتى تستبين السبيل ويتضح النهج وتلوح الغاية ويستقيم المسير.

ويدعو كل مفكر ويحفز كل كاتب إلى أن يمنح هذا الموضوع بعض عنايته ويصرف له بعض وقته أداءً للأمانة وقيامًا بالواجب[1].

(١) الرسالة، عدد ٨٤٠ ، الاثنين ١٣ شوال ١٣٦٨هـ/٨ أغسطس ١٩٤٩م.

موقف عزّام من القضايا العربية والعرب ووحدتهم

كتب عن اتحاد العرب مقالتين[1]:

قدّم فى بداية المقالتين بمقدمة عن العصبيات والغلو فيها. ورأى أن الغلو فى العصبية يملك على صاحبه عقله ورأيه ويصرّفه بالهوى والأثرة، فلا يعترف بالحق إلا بمقدار ما بينه وبين عصبيته من سبب. الحق والعصبية الغالية لا يجتمعان.

وينقل رأيًا لسنائى الغزنوى أحد كبار شعراء الصوفية الفرس:

"لا تستطيع الاستقامة على طريق التوحيد بقبلتين، فإما رضا الحق وإما هوى النفس". ويرى أنه إذا كان التاريخ منذ وعى أحداث الأمم، وسجل وقائعها أن موطن الأمم السامية[2] ما بين دجلة وبحر الروم وبيداء سيناء، من الشرق إلى الغرب، وما بين بحر العرب وجبال طوروس، من الجنوب إلى الشمال.

ثم امتدت بهم الهجرة، حتى اتسع موطنهم غربًا إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى وجنوبًا إلى بلاد السودان وسواحل إفريقية الشرقية)، ثم خلطهم الإسلام وحوادث التاريخ بجماعات هاجرت إلى بلادهم وهاجروا إلى بلادها.

لذا لا ينبغى أن يتلجلج سكان البلاد العربية فى أمرهم، أو أن يختلفوا فى أصولهم ويتنابذوا بالعجمة، فيقال هذا عربى الأصل وهذا غير عربى. ومن هنا يحدد عزام رأيه فى هذا الموضوع قائلاً:

"كل من اتخذ بلاد العرب دارًا، ولغة العرب لسانًا، ورضى العرب قومًا وشاركهم فى آمالهم فهو عربى؛ كما أن العربىّ الذى يذهب إلى بلاد غير عربية

---

(١) الثقافة، ١١ مارس ١٩٤١، ٢٢ إبريل ١٩٤١.

(٢) كتب بعد ذلك عن مهد العرب ووطنهم كتابًا تحت عنوان "مهد العرب"، نشر بدار المعارف بالقاهرة ١٩٤٦ فى مائة وسبع وثلاثين صفحة.

ويتكلم بلغاتها ويتحضر بحضارتها، ويلبس عصبيتها، يعد منها. له ما لأهلها من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات".

ويرى أن الأمة العربية ستبقى حافظة لخصائصها، فلها على اختلاف الديار أسباب تربط بينها، وتوّحد جمعها، وتحدد طريقها وتبين غايتها.

للأمة العربية ما بين دجلة والمحيط الأطلسى، أواصر تجعلها أمة واحدة على اختلاف الأرجاء وتباين الأحوال وهى:

أولاً: أنها أمة ذات لغة واحدة تعرب بها عن أفكارها وعواطفها، وتقرأ بها ما أدركه آباؤها من علم وأحسوه من عاطفة.

وقد اختلفت لهجات اللغات العامية، ولكن بقيت الفصحى لغة جامعة. تجعل جرائد بغداد مقروءة فى فاس. وليست هذه الفصحى لغة الخاصة من المتعلمين فحسب، بل هى لغة العامة فى كل بلد يسمعونها فيفهمونها.

ثانيًا: للأمة العربية أدب قوى غنى يغزو عواطفها ويقوى آمالها، ويطمح بها إلى جلائل الأمور ويمنحها بهجة الحياة، سواء فى ذلك أدبها الجاهلى، ثم آدابها الإسلامى.

ثالثًا: لهذه الأمة تاريخ وضاء رائع. جليل جميل، مرغوب مرهوب، سواء فى تاريخ بابل وآشور أو تاريخ اليمن القديم. ويشير عزّام إلى تاريخ العرب فى ظل الإسلام الذى طوى ما بين الصين والمحيط الأطلسى فى حقبة قصيرة ولف الممالك فى راية صغيرة. وجمع فى همة العرب، وعدل العرب، أممًا وبلادًا وحوادث لم تجتمع لغيرهم فى اضعاف زمانهم:

تقاربت جنبات الأرض واجتمعت
فى همة العرب أقطار وأمصـــار
كـــأن مــا بــين بـغــداد وقــرطبــة
على الخريطة أمتــار وأشبـــــار

لم يشر عزّام إلى قائل هذه الأبيات، ثم يضيف فى المقالة الثانية ما يربط الأمة العربية من روابط الأواصر.

رابعًا: "رابطة الدين".فالدين أقوى روابط الأمم، وأمتن أواصرها وأعظم أسباب اتحادها. يمدها بعقائد تقرب بين عقولها ويلهمها فضائل تؤلف بين عواطفها ويواخى بين مناهجها فى العيش، وأساليبها فى الحضارة. وبرهان ذلك بيّن فى الماضى، ماثل فى الحاضر.

والإسلام خاصة آصرة وثيقة وعروة لا تنفصم، بما يدخل فى أمور الأمة كلها جليلها ودقيقها، ويصحب الفرد فى أحوالها جميعها.. وبأنه الدين الذى خلق تاريخًا، وأقام دولاً ونشّأ حضارة[1]. فهو من روابط الأمة العربية، بل أعظم روابطها.

ثم يتساءل كما لو كان مدركًا ما يجول فى النفوس من وجود غير المسلمين. ولكن كيف يعد الإسلام من روابط العرب وفى العرب غير المسلمين؟

أنعده رابطة بين العرب، لأنه دين الأكثرين؟

يجيب: نعم!

ولأنه كما أسلفت، تاريخ ودول وحضارة يفخر بها العرب كلهم مسلمهم وغير مسلمهم. وقد أحسّ هذا غير المسلمين من العرب، فأشادوا بمجد الإسلام، واجتهدوا فى تبيين تاريخه وتاريخ حضارته.

ولكن هذه المزايا وهذه الأواصر، على قوتها ومتانتها ووضوحها، تحتاج إلى ما يزيدها قوة ووضوحًا، ويمكّن لها فى العقول والقلوب، وينهج لها فى أعمال الحياة.

فلابد من الدعوة إليها، والإبانة عنها، وتوجيه الناس إليها، ولابد من التوسل إليها بوسائل كثيرة. ويرى أنه لابد من العمل على أن يجلو هذه الروابط، ولابد من الانتفاع بها والاستفادة منها وتحويلها من الفكر إلى العمل، ومن العاطفة إلى الفعل. ويضرب مثالاً بقوله:

---

(١) الثقافة، ٢٢ إبريل، ١٩٤١.

"إن فى بلاد العرب أنهارًا كبيرة وصغيرة: النيل[1] ودجلة والفرات والأردن وبرَدَى والعاصى وغيرها؛ وهى أنهار طبيعية، صبتها السماء على الأرض فى غياهب التاريخ ومجاهل الغيب، ولكنها لا تروى الأرض وتسقى الناس والأنعام إلا باستقاء، وإلا ببناء السدود وشق الترع والجداول.

وكذلكم خصائص العرب، وأواصر العرب، لابد لها من عقول العرب وأيديهم ليكون لها فى حياتهم آثارها، وعلى الأرض ثمارها، وبين الأمم أعمالها.

وعلى العلماء والأدباء والكتاب والشعراء أن يتوسلوا بآرائهم وأقوالهم إلى ما يقرب بين العرب فى تعليمهم وتربيتهم. ويؤكد بينهم التعاون على الخير والتظاهر على ما يريدون لأنفسهم من نظم وأعمال تكفل سعادتهم وعزتهم على هذه الأرض.

تبادل الصحف والكتب، والتزاور، والائتمار فى الحين والبلد بعد البلد، فيما يحزب العرب من مشاكل التربية والتعليم والاقتصاد والسياسة والحرب والسلم - كل أولئك يمهد السبيل إلى الغاية المرجوة.

وويل للعرب إن لم تجدْهم هذه النذر، وتوقظهم هذه الصواعق المتساقطة حولهم، وتغطية هذه المثلات المحيطة بهم؛ فليسارعوا إلى العمل، ويبادروا إلى لم الشعث وإصلاح الفاسد وانتهاز الفرص، وخلق الوسائل الشاقة واليسيرة.. فى غير توان ولا تواكل.

---

(١) تحدث فى الرسالة عن مصر والبلاد العربية، عدد ١٦٨، فى ٢١ سبتمبر ١٩٣٦، كتب عزّام عن هذا الموضوع مقالات أخرى، ومن بينها ما كتبه فى مجلة الرسالة تحت عنوان: مكانة العرب بين الأمم، عدد ٥ يونيه. ١٩٤٤. تحدث فى هذه المقالة عن العرب وموطنهم ولغتهم التى حوت على مر العصور أدبًا لا تحويه لغة أخرى، زمانه أربعة عشر قرنًا، ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها أدبًا اتسعت به المواطن - ما بين الصين وبحر الظلمات (المحيط الأطلسى) هذا الاتساع، وامتدت به الأعصار هذا الامتداد . فالعربية بأهلها، والعربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة، فهل تنصرها همم أبنائها وتستجيب لها عزائم؟، كما تحدث عن وسائل الوحدة العربية ومقاصدها فى الرسالة عدد ١٩ يونيه١٩٤٤.

ويشير إلى أن ما نبغى من اتحاد العرب؛ أن يتبوءوا بين الأمم المكان الجدير بهم، وأن يشاركوا فى أمور العالم بآرائهم وأعمالهم، وأن يعملوا لسعادتهم وسعادة البشر، فاتحاد العرب خير لهم وللناس كافة، وليس شرًا على أحد. وليس فى اتحاد العرب ما يخشاه غيرهم من بغى أو ظلم أو حرب أو سيطرة، فليعلم ذلك جيراننا من الأمم التى تربطنا بهم أمتن الروابط، فإنما نبغى الخير لأنفسنا ولهم وللبشر.

وكما يرى عزّام هذا بالنسبة للعرب، يراه كذلك بالنسبة للمسلمين فتراه يترجم عن التركية كتاب اتحاد المسلمين فى الماضى والحاضر ومستقبل الإسلام الذى ألفه جلال نورى. حيث قام بترجمته حمزة طاهر وشاركه عزّام فى هذه الترجمة كما شاركه فى ترجمة كتاب آخر هو تاريخ الحضارة الإسلامية الذى ألفه المستشرق الروسى بارتولد وهو، وإن كان كتابًا صغير الحجم إلا أنه كثير الفائدة[١].

وكذلك حديثه عن البلغار المسلمين، صفحات مطوية من التاريخ الإسلامى[٢]. وحديثه عن الجامعة العربية نشأتها وأهدافها[٣].

ودراسته عن الإسلام فى الهند[٤]. وكتابه: الإسلام اليوم وغدًا. ويؤسفنى أننى لم أعثر عليها. وكذلك كتاب الرحلات التى سجل فيه زياراته للعالم الإسلامى وما أبدعه المسلمون موضحًا الكثير من دقائق الأمور ومركزًا على ما يوجد فى العالم الإسلامى وما أبدعه المسلمون فى تلك البلاد وما خلفوه من آثار هى سمات توحيد بين الأمة الإسلامية. وخص فارس وبلاد الهند بالعديد من المقالات فى الرسالة وقد جمعت مع غيرها بعد ذلك فى كتاب الرحلات.

---

(١) نشر بالقاهرة.
(٢) الثقافة، ٢٨ ديسمبر ١٩٤٣، ٩ يناير ١٩٤٤.
(٣) الثقافة، ٢٠ مايو ١٩٤٧.
(٤) الثقافة، مسلمو الهند، ٩ إبريل ١٩٣٩.

موقف عزّام من علل الأمة المصرية والعربية

فى مقال لعزّام بعنوان من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر [1] بدأه بقوله: يروى بعض الصوفية أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان إذا قفل من غزاة قال:

"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".

ويقول: "إن الجهاد الأصغر قتال الأعداء وخوض المعامع وقرع المنايا، والجهاد الأكبر تقويم النفس وتطهيرها وإعدادها للرقابة على أعمالها والقيام بالعدل فيما بينها وبين الناس، ثم مجاهدة الأنفس الأخرى بالحكمة والموعظة، وبالرغبة والرهبة واللين والشدة، حتى تستقيم على السنن القويمة، وتحتمل كل ما يحمّلها الواجب؛ وتأخذ كل ما يعطيها الحق؛ وحتى يجتمع الناس على شرع لا تفرقهم الأهواء، ولا تثور بينهم البغضاء؛ ثم النظر بعد هذا فيما يصلح الجماعة ويسعدها فى معايشها.

صدق هؤلاء القائلون: فحرب العدو جهاد بين لا تقعد عنه الأنفس العزيزة ولا تختلف فيه الكلمة..، ولكن جهاد النفس وإصلاح الجماعة وإسعادها، خفىّ المسالك غامض الجوانب، تعترك به فى النفس الواحدة منازع مختلفة، وتفترق بالجماعة أهواء متشاكسة، ويطول فيه المدى، وتمتحن العقول والعزائم.

فإن تكن الأمة المصرية قد مشت فى عزتها إلى غايتها أو أشرفت على الغاية.. فإنما قفلت من جهادها الأصغر إلى جهادها الأكبر.

الجهاد الذى ينظر فى أحوال الأمة ما بطن فيها وما ظهر، ليربّها على الخير والحق ويردها جماعة صالحة متآخية، تجمعها المودة ويعدل بينها الإنصاف؛

---

(١) الرسالة، عدد١٦٧، ١٤ سبتمبر ١٩٣٦، الاثنين ٢٨ جمادى الآخر سنة ١٣٥٥.

الجهاد الذى يعنى بالجهلاء فيعلمهم، وبالمرضى فيأسوهم، وبالبائسين من الزراع والصناع فيأخذ بأيديهم إلى المعيشة الراضية، ويقارب بين طبقات الأمة حتى يجمع شملها الخير العام والمصلحة الشاملة.

الجهاد الذى يهيئ للأمة ولاة ينشرون السلام والأمان، ويقومون بين الناس بالقسط فى كل صغيرة وكبيرة، حتى تعمّ النصّفة القوىّ والضعيف. والقصير والمخالف، والمحب والمبغض، وتقوم للأمة حكومة يحمل كل واحد فيها قانونًا فى الخلق، يكفل ألا يحيد قيد شعره عن القانون الذى فى الورق؛ ويتنزل فيه المثل الصالح من الرؤساء إلى من دونهم حتى يشعر كل عامل أنه يتلقى العدل من فوقه يوحيه إلى من دونه، وأنه حين يعدل لا يتبرع و لا يمن على أحد، وإنما هو الحق الواجب لا محيد عنهما ولا مفر منهما.. ولا يسع الأمر غيرهما؛ وحتى لا يعص فى أمر إلا بما يعصى به عمر بن الخطاب لو عرض هذا الأمر عليه، لا محاباة ولا حيف ولاهوادة، القوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له؛وحتى يكون العامل الصغير فى أقصى الأرض نائلاً حقه آمنًا عليه. كالحاكم الكبير فى دواوين القاهرة؛ وحتى ييأس أكبر الموظفين وأقرب المقربين من المحاباة يأس أصغرهم وأبعدهم. لكلٍ حقه،وعلى كل واجبه، وفوق الناس جميعًا قانون الأمة، وعدل الله.

الجهاد الأكبر الذى يذهب بهذه المساوئ البادية فى انفسنا وأجسامنا وأزيائنا وطرقنا واندیتنا ودواويننا ودورنا.

والذى يأخذ الأمة. بيد رحيمة حازمة لتوقى بها على النجاة، غير مبالين بصحات المرضى الذين يكرهون الدواء، والمسفدين الذين ينفرون من الإصلاح.. إلخ. إلخ.

لست أقول إن أمتنا مبتلاه بالشر والفساد بين الأمم، ولكننى أريد لها أن تكون: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾[1]،وأن تصير مضرب المثل بين الأمم فى أخلاق أفرادها، ونُظُم جماعاتها وسعادة أولادها.

---

(١) آل عمران / ١١٠ .

سيقول الضعفاء: هذا مطلب عسير!وأنا أقول إنما تطمح عزائمنا إلى المطالب العسيرة، وإنما يكافئ هممنا المقاصد البعيدة.

وسيقول الذين فى قلوبهم زيغ، هذا هذيان! وينسون أن الهذيان تنطق به القوانين كلها. فإن لم يكن عملنا مصدقًا قوانيننا، فما جدوى هذه القوانين؟

وحسبنا أن يقوم على رأس الأمة "عُمر" واحد يضرب المثل ولا يتهاون فى إنفاذه، فإذا الناس كلهم رغبة ورهبة يقتدون به، ويحاول كل منهم أن يجعل نفسه عُمرًا آخر.

إن نفوس هذه الأمة معمورة بالخير ، وإن ما أضّر بنا أن رفعت فى كنف العدو رايات للشر انحاز إليها كل شرير، وأشفق منها كل خيّر، فازداد المسيئون إساءة، وخضعت نوازع الإحسان فى نفوس المحسنين.

فاليوم نريد أن تُرفع فى هذا البلد للخير رايات، ويُهاب بما فى الأمة من أخلاق ليزداد المحسن إحسانًا، ويكف المسيئ عن إساءته، فإذا الناس راعون على الخير.. أنصار به فرحين به مغتبطون سعداء... ذلكم الجهاد الأكبر..

موقف المسلمين من أوروبا والحضارة الغربية

العالم الإسلامى والحضارة الغربية:

يعتز عزّام بالفكر والتراث الإسلامى، ويرى أن على الأمة الإسلامية أن تنظر إلى تراثها ناقدة ـ فاحصة ـ قبل أن تأخذ من غيرها. قال فى معرض حديثه عن النهضة التركية:

"إذا نقدت أمة أمورها، ونظرت فى أحوالها، فنفذت إلى بواطنها جهد النظر الثاقب، والرؤية والفكر، ثم هداها إلى أن تستبدل سنة بسنة، وحالاً بحال، فتلك الأمة رشيدة حميدة وإن أخطأها الصواب ـ وقل أن يخطئها ـ لأنها بذلت جهد الإنسان فى تبيّن الحق واجتهدت وسعها فى إيثار الرشد، ولم تأل فى التريث والتمحيص والنقد المتثبت والنظر الصحيح.

وإذا أخذت أمة بأسباب التقليد، وأغرمت بالمحاكاة، كلما لا ح لها لآلاء من أمة عشت إليه، وكلما سمعت نغمة قوم هامت بها، فتلك أمة ضالة وإن نقلت عن غير هدى، مخطئة وإن أخذت عن غيرها صوابًا.. ذلكم بأنها حقرت عقولها، وأغمضت عيونها، وأسلمت إلى يد غيرها أزمّتها؛ لم تنظر لنفسها فتأخذ وتدع، ولم تختر بعقلها فتستحسن وتستقبح، بل خبطت خبط عشواء، وانطلقت كالحاطب فى الظلماء هى فى ذلك قد أهدرت إنسانيتها بما ألغت إرادتها واختيارها.

وإن استمسكت فى ظاهرها بما أخذت من نظام واعتصمت فى رأى العين بما نسخت عن غيرها من سنن، فذلكم ظاهر ليس وراءه باطن ورُواء ليس وراءه حقيقة.تلكم أمة ممسوخة.

وقد ابتلى كثير من المسلمين فى هذا العصر بداء التقليد.. ورأوا سلاحهم أضعف من سلاح أوروبا، وعلمهم أقل، ونظامهم أوهن فجعلوا ذلك تعلّةإلى نبذ ما عندهم من خلق ودين وحضارة لتحلل النفس من تكاليف الإنسانية.. وزيّن لهم الهوى أن يقيسوا الدين والأخلاق على العلوم والصناعات، فمضوا يرون كل شيء عندهم باطلاً، وكل شيء فى أوروبا حقّا، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عندهم ويأخذوا كل ما عند الأوروبيين.. وكم قلت وقال غيرى إن المدنية الخلقية والدينية لا تُعارض المدنية الصناعية، فالصناعات قائمة على علوم طبيعية لا تختلف فيها الأمة ولا يمتاز بها الشرق من الغرب؛ليست مشتقة من نفس الإنسان ولا صلة لها بقلبه، فتستطيع أمة أن تأخذ من غيرها علوم الطبيعة والكيمياء والحساب والفلك ونتائج هذه العلوم فى الصناعات دون أن تغير دينها أو تبدل أخلاقها.

والحضارة النفسية هى الإنسانية حقّا، والمدنية فى صميمها وهى مشتقة من نفوس الأمة تفسد بفسادها وتصلح بصلاحها[1]..

ذلكم ما ينبغى أن نفكر فيه، ونتوفر على درسه، فإن الأمم لا تصلح على الفوضى ولا تسيّر بالأهواء والشهوات؛ ذلكم ما يجب أن يعنى به أولو الرأى من المسلمين ليحذروا أممهم أن تتهافت فى هذا التقليد، وتتردى فى هذه المهالك؛ ذلكم ما يجب أن ينهض به الشعراء والكتاب، ليضرموا فى النفوس الذليلة عزة تمنعها المحاكاة العمياء، وكرامة تعصمها أن تسير كالعجماء من لى فى المسلمين بعشرين رجلاً من كبار النفوس وعظماء الهمم البصيرين بالمدينة الحاضرة. ظاهرها وباطنها، العالمين بحضارة الإسلام جَليّها وخفيّها، العارفين بأدواء الأمم وأدويتها، لينيروا الطريق فى هذه الضلالات المظلمة والفتن المدلهمة؟

من لى فيهم بعشرين رجلاً كهذا العالم الكبير والشاعر المبدع الذى تنفح أنفاسه الروح فى الأجسام الهامدة، والأمل فى القلوب اليائسة، الرجل المبارك محمد إقبال.. الذى وقف من حضارة أوروبا وفلسفتها موقف الناقد البصير.

---

(١)الرسالة، النهضة التركية الأخيرة، عدد ٢١ يونيه ١٩٣٥.

يكشف عن زيوفها ويُبين عن بهرجها... إن عند المسلمين كنوزًا سفت عليها أعاصير الزمان.

كم رأينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرأوا، وهم لا يسمعون ولا يقرأون إلا عن أوربا. ليس فيهم رجل حر. إيه يا ضلال التقليد!.

"لنا شريعة جاء بها القرآن والسنة وعملت فيها قرائح المسلمين بحثًا واستنباطًا أربعة عشر قرنًا. فما بقيت واقعة إنسانية إلا اشتق لها حكم يلائم الزمان والمكان. فصارت هذه الشريعة جماع تجارب الأمم فى عصور مختلفة وبلاد كثيرة. فلما أراد المصريون أن ينظموا القضاء عجزوا عن النظر فى هذه الكنوز المدخرة، وأشفقوا من الاضطلاع بهذا العبء الثقيل فأجلسوا نفرًا يترجمون لهم قانون نابليون، فتهيأ لنا قانون مختصر مرتب مفصل، وأصبحنا نجارى فرنسا فى نظامها، فقد طوينا مسافة القرون فى أشهر قليلة. وماذا علينا بعد ذلك أن يكون هذا القانون فى دين الأمة نكرًا وفى أخلاقها شذوذًا، وفى أفكارها أعجوبة وفى جسمها شللاً وفى نفسها موتًا؟ لا ضير فقد أخذنا قانون نابليون، وناهيك بذلك فخرًا وتمدنًا لو أن فى المسلمين أناسىّ يستوحون عقولهم ويستفتون قلوبهم، لخلقوا لأنفسهم نظامًا وشرعوا لأنفسهم من دينهم قانونًا، لو أنهم أصحاب همم لسلطوا همم على الزمان فأسرَته، ثم صرّفته طوع المشيئة، فإن الرجل الحر سيد الزمان والمكان يسخرهما ولا يذل لهما.

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوروبا غلوهم فى النعرات القومية والتكاثر بالمفاخر التاريخية، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية، كأنهم لم يكونوا على الأحداث أعوانًا، ولم يلبثوا أربعة عشر قرنًا إخوانًا!!

قيل للمصريين: أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء، واعبدوا العجل لتقوموا بذلك شهداء.

وقيل لأهل الشام: وأنتم يا بنى الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين.. وقيل للفرس: يابنى الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم، وأزالوا ملككم وفرضوا دينهم عليكم، فانفضوا أيديكم من أخوّتكم، وردّوا إليهم دينهم، وارجعوا إلى زردشت وإن لم تعرفوه، واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه، فالباطل الإيرانى خير من الحق العربى!

وقيل للترك: وأنتم سلالة جنكيز المقدس، وعبدة الذئب الأطلسى قد كانت لكم فى سيبريا حضارة، ثم كانت لكم فى قره قورم دولة، فارتدوا إلى حضارتكم الأولى، وانزعوا إلى وثنياتكم القدامى ودعوا مجدكم فى الإسلام، واكفروا بمآثره عليكم، ومآثر آبائكم فى تاريخه.

"دعيت كل أمة إلى جاهليتها، فذهب المسلمون ينبشون قبورهم.. وليس أمة إسلامية ذات مجد فى الجاهلية، إلا مجدها فى الإسلام أبهى وأبهر وأعلى وأعظم. ولكنها عصبيات الجاهلية والفتن الأوروبية، تركس الإنسان فى بهيميته، وتردّه إلى وحشيته".

بينما يجهد عقلاء المسلمين لإيقاظهم من رقدتهم، ويحرقون أنفسهم لإشعال الحياة فيهم، إذا النهضة التركية الأخيرة، فقلنا حياة فى المسلمين جديدة، ويقظة لا تلبث أن تصير شاملة.. ثم نظرنا فإذا نفخة الصور، لا تدعوا إلى النشور، وإذا الهمم العالية تسف والعزائم الماضية تهن... وإذا نهضة من المحاكاة عليلة، وخطة من التقليد ذليلة، قصارها "**اقطع كل ما يربطك بالإسلام وأممه، وأحكم كل ما يصلك بأوروبا وسننها**"، ثم يواصل حديثه عن افتتان المسلمين بما فى أوروبا من غثة وثمينة بأقوال الشاعر والفيلسوف الهندى محمد إقبال من كتابه جاويد نامه[1].

---

(١) وهو رحلة خيالية فى الأفلاك والجنة.. تضمنت آراء إقبال فى الإسلام والمسلمين.

"قال مصطفى[١] وهو يتغنى بالتجديد: "لابد أن نمحو كل قديم عتيد". هذا حيث من كتاب "جاويد نامه" نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (أى محمد إقبال) حينما التقيا فى الجنة:

"ويقول على لسان أبدالى[٢]" ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه، ليست قوة الغرب فى العود والرباب، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب، ولا من سحر ورديات الخدود، ولا من الساق العارية والشعر المجدود، وليست هيبة الغرب من نبذ الدين، ولا بهاؤه من حروف اللاتين. ما قوة الإفرنج إلا العلوم والفنون...

ما الحكمة صورة من الزى واللباس، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الرأس. إن للعلم والفن أيها الشباب النافر، سرّا وراء هذه الظواهر؛ وإنما يغنى فى هذه السبيل العين النظارة، لا هذه العمارة[٣] أو تلك العمارة؛ حسبك الفكر النفاذ، وناهيك بالطبع الدَرّاك. إن ملُك المعنى لم يحجرّه أحد ، ولا يناله إلا الجهاد والجلد، لقد غفل التركى عن نفسه، وسكر من الإفرنج رأسه. فشرب من يديهم السم حلو المذاق.. يؤثر السهل إيثارًا لراحته، ويرى فى السهل كفاء فطرته وإنما طلب السهل فى هذه المحن إيذان بأن الروح قد فارق البدن"[٤].

اختتم عزّام سلسلة أحاديثه عن النهضة التركيه الأخيرة والتى كان قد بدأها بقوله ردًّ ا على تساؤل نشرته إحدى المجلات الكبيرة فى مصر إلى بعض الكّتاب.. هذا السؤال: "د. إلى أى حد يجب الاقتداء بتركيا فى نواحى نهضتها الأخيرة". فحفزنى هذا إلى الكتابة فى موضع تجنبته زمنا طويلا، لا استهانة به فهو جد خطير. ولكن إشفاقا مما يثور بالنفس حين تعالجه.

إختتم بقوله: "وأذكر فى هذه الخاتمة ما قاله فى أوربا بعض أولى الرأى منذ سنين، أقال: " كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا ! معذرة، لا

(١) يقصد مصطفى كمال باشا (أتاتورك).

(٢) أحمد خان أبدالى ملك لبلاد الأفغان فى القرن الثانى عشر الهجرى.

(٣) العمارة غطاء الرأس.

(٤) الرسالة، العدد، ١٠٧، ١ يوليو ١٩٣٥.

تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم، وجالدوكم ما استطاعوا ودافعوكم جهد طاقتهم، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة. وها نحن أولاء نعترف بأن الخير فى اتباعكم .. وأن آباءنا أثموا إذ منعوا عنا خيركم، فاقبلوا الأبناء فى جماعتكم، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم. ها نحن أولاء نحنى رؤوسنا إكبارًا لكم، ونلوم أجدادنا من أجلكم"

ورأى عزّام أن العلم هوالسياج الواقى والطريق البينة لبيان ما يؤخذ أو يترك. لذا نجده فى كلمة ألقاها بالرياض فى افتتاح جامعة الملك سعود أول جامعة فى المملكة العربية السعودية يبدؤها بتوضيح منزلة العلم فى الإسلام ومكانة العلماء.

وقد أوضح بكلمته تلك، وبما سبق من مقالات، أوضح رأيه فى قضية الأصالة والمعاصرة والأخذ عن أوروبا. والتى شغلت المفكرين فى مصر والعالم الإسلامى منذ القرن التاسع عشر، حتى وقتنا الحالى.

أدرك عزّام أهمية العلم فقال: إن العلم أساس كل نهضة وحضارة، وإن للمسلمين فى طلب العلم سيرة لا تعدلها فى الأمم سيرة، ولهم فى التعليم والتعلم سنن لم تخل مثلها سنن، جعلوا طلب العلم عبادة، وسّموا العلماء ورثة الأنبياء، وعدوا المتعلم مجاهدًا فى سبيل الله.

بدأ المسلمون تاريخهم بالتعلم والتعليم، فتلقوا القرآن وحفظوه وكتبوه وفقهوه، وانتشروا فى أقطار الأرض يرفعون علم التوحيد ويعلمون القرآن وشرائع الإسلام..

ثم سار المسلمون سيرة فى التاريخ فيها من النقد والتثبيت ما هُدوا إليه ومرنوا عليه فى علم الحديث، وأرّخوا كل ما عرفته الأمة الإسلامية من الأحداث، كما سجلوا سير العظماء على اختلاف أحوالهم... فما تركوا مظهرًا من مظاهر الحضارة ولا جانبًا من جوانبها إلا سجلوه وفصلوه، وتركوا للخلف تراثًا مجموعًا، وغنيمة ميسّرة..

ثم نظروا فى العلوم العقلية فلم يألوا جهدًا فى النظر فيها وتلقيها عن أهلها ونقدها وتهذيبها والزيادة عليها حتى صار المسلمون بعد قرون قليلة أئمة العالم فى العلوم والفنون كلها، وأساتذة المشرق والمغرب. وصارت البلاد الإسلامية ما بين الصين وبحر الظلمات، أو ما بين غانه وفرغانه كما قيل قديمًا، دار علم وتعليم، ونظر وتفكير، تعج بالعلماء وطلاب العلم ويلتقى الراحلون فى طلب العلم منهم فى كل صقع وكل مدينة، على بعد الشقة ونأى الديار كأنما زويت لهم الأرض؛ فقربت بخارى وسمرقند والشاش من بغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ودمشق القاهرة وفاس وقرطبة واشبيلية وسائر المدن الإسلامية.

وقد علم المسلمون وتعلموا فى الإقامة والسفر، والبدو الحضر، وفى الدور والمساجد، ثم فى المدارس أنشؤوها، واتخذوها موئلاً للعلماء والطلاب، ووفروا فيها الأسباب وخزائن للكتب جعلوها للقراءة والدرس، ويسروا ورودها لكل طالب، وسهلوا استعارة كتبها والانتفاع بها. تنافس فيها خلفاؤها وملوكهم وأمراؤهم وكبراؤهم، حتى لكأن العالم الإسلامى كله علماء ومتعلمون، ومدارس وخزائن كتب، وما يعرف التاريخ لهذا مثيلاً، ولا علم له شبيهًا.

ثم تقلبت بالمسلمين غِيَرُ، وتناوبتهم أحداثُ حادت بهم عن سننهم وحادت بهم سبلهم،أو أضعفت هممهم، وقلّت عزائمهم، فأبطأ سيرهم، وفتر نشاطهم، ووهن مسعاهم.

وكان فى أوروبا حين ازدهار العلوم والفنون عند المسلمين مدارس متصلة بالكنائس لتخريج القسس والرهبان. وبقيت فى بعض هذه المدارس آثار قليلة مما ترك اليونان والرومان فى الفلسفة والمنطق.

ومازالت هذه المدارس الدينية الضيقة تتطور منذ القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) حتى نشأت فيها مدارس جامعة شملت ضروب المعارف التى وعاها الأوروبيون حينئذٍ، وتغير منهاج الدرس والبحث واتجه وجهة عقلية علمية.

وكان لاتصال أهل أوروبا بالحضارة الإسلامية فى الأندلس وصقلية وجنوبى إيطاليا، وفى نزوحهم إلى البلاد الإسلامية أيام الحروب الصليبية أثر بليغ فى تنشئة العالم وتحرير العلم عندهم، وكانت كتب كبار المسلمين كابن سينا وابن رشد ـ والرازى والزهراوى ـ أساس الفلسفة والطب عندهم عصورًا طويلة.

وفى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى). نشأت جامعات فى باريس بالرمو فى إيطاليا وفى بولونيا وإنجلترا.

وكانت النزعة الدينية غالبًا عليها، والكنائس والأديرة متصلة بها. وكانت جامعة باريس قدوة الجامعات الأوروبية زمنًا طويلاً، وكان يقصدها الطلاب من أنحاء أوروبا كلها.

وأيقظت الأحداث أوروبا، وتهيأت لها الأسباب، ويُسرت الوسائل ففتحوا أعينهم ونظروا فى ماضيهم وحاضرهم، وأخذوا عن العرب العلوم والفنون، ما كان فيها عربى النشأة وما حفظه العرب وهذبوه ويسروه من علوم اليونان والرومان والفرس والهند.

استقامت أوروبا على الطريق قرونًا فبلغت غايات فى العلوم بعيدة، فكشفت أسرارًا فى الخليقة خفية، فسيطرت على العالم علومها وصناعتها؛ وبهرت الأمم حضارتها وسيرتها. ونحن نرى اليوم ما أدركته عقولها وما صنعته أيديها فى ظل جوانب المعارف والصناعات البشرية.

ودهش المسلمون لما بهرهم من قدرة أوروبا وسلطانها وجيوشها وأسلحتها وصناعتها ما خدعهم من زخرفها ولآلائها، وما فتنهم من رفاهيتها وترفها ولهوها ولعبها...

وأوضح كيف أن المسلمين تنبّهوا إلى حاضرهم الذى تخلفّ، وأنشأوا المدارس على اختلافها، وأرسلوا البعثات من العلماء والطلاب إلى أوروبا، واتخذوا من الوسائل ما يلحق بهم بركب الحضارة الإنسانية من جديد... وقد اشتبهت الطرق

على جماعات منهم، والتبست الأعلام فأخذوا عن أهل الغرب ما يؤخذ وما لا يؤخذ، وما يحب وما يكره وما ينفع وما يضر، بل وأخذوا أحيانًا ما يضر ولا ينفع، وما يفسد ولا يصلح، وما ليس من العلم الصحيح والأدب الحق فى شىء.

ويحدد عزّام فى كلمته هذه[1] موقفه من تلك الحضارة الأوروبية فيقول:

"والطريقة المثلى والخطة الحسنى أن نميز النافع من الضار والخبيث من الطيب، وأن نفرق بين نوعين من الحضارة: الحضارة الصناعية والحضارة الإنسانية أو الأخلاقية، فالأولى قائمة على العلوم الطبيعية والرياضية وهى لا تختلف فى أمة وأمة، ولا تتصل بدين دون دين. فهذه ينبغى أن تؤخذ أنّى وجدت، فليس فى العالم هندسة غربية وأخرى شرقية ولا رياضة إسلامية ورياضة غير إسلامية.

أما الحضارة الإنسانية أو الأخلاقية. وهى التى تتصل بنفس الإنسان وترتبط بدينه وتاريخه وعاداته وآدابه فهذه لا تتبع الحضارة الصناعية، ورب فرد يبلغ بعيدًا من العلوم والصناعات وهو فاسد العقيدة، سيئ الخلق، ضال مُضل، وكذلك نقول فى الجماعات والأمم، فينبغى ألا يُغم علينا معشر المسلمين والعرب. فلتأخذ الحضارة الصناعية حيثما ثقفناها ونتبع فيها الأمم السابقة المبرزة، ثم نستمسك بديننا وتاريخنا وأخلاقنا وآدابنا وعاداتنا ففيها سعادتنا وعزتنا وفلاحنا، وننظر لأنفسنا فنأخذ وندع ما هو أنفع لنا وأولى بنا".

---

(١) محاضرة ألقيت فى مدينة الرياض فى حفل افتتاح الجامعة الأولى بها، والتى سميت جامعة الملك سعود، والذى تغير فيما بعد إلى جامعة الرياض، ثم جامعة الملك سعود أخيرًا .. وكان تاريخ إلقاء هذه المحاضرة فى يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة فى مدينة الرياض.